الفصل الرابع

مقالات تمَّ نشرها بصحيفة المصري اليوم

لقد كانت تلك المقالات المنفذ الأساسي التي انطلقتْ منه أفكاري عن الحُرِّية، وقد أثارتْ بعضًا من الجدل، ولكم أتمنى أنْ تثير جدلًا أوسع عندما تنشر بالكتاب، وكلما زاد الجدل والحوار، كلما سنحتْ الفرصة للإبداع أنْ يرى النور عن طريق تلاقي، وتصادم الأفكار الذي يؤدي بالضرورة إلى تحريك الواقع، وسوف نرى حتمًا التغيير في وقتٍ ما حقيقة واقعية ملموسة.

(١)

"لا تجادل ولا تناقش يا أخ علي"

دائمًا ما نحمل داخلنا أسئلة وأحيانًا اعتراضات، أمور نحتار فيها، وأخرى نعتقد أننا على يقينٍ بها، كم وددنا ونحن صغار طرح العديد من التساؤلات، لكنْ أحيانًا الخوف، وأحيانًا أخرى أجبرنا الآخرون على السكوت، وكأنَّ أمير الجماعة في فيلم الإرهابي، كان حاضرًا دومًا بيننا، صوته يدوي في كل مكان "لا تجادل" وسبب الحيرة هو ما يحدث لنا حين تزداد معرفتنا وتتنوع، ونرى العالم بعينٍ مختلفة عمَّا كان عليه، ومن ثمَّ نبدأ في فحص ما لدينا، ونبدأ في جدال ونقاش لا ينتهي، وعند ذلك قد تبدأ ثورة داخلنا، ونحاول تغيير الواقع الحالي، لذا نسعى جادين للتغيير.

ولكننا غالبًا ما نسمع ذلك الصوت "لا تجادل ولا تناقش" ورغم ذلك فكل شيءٍ في تلك الحياة قابل للنقاش، فلا قيمة للحياة إنْ لم نناقش كل التفاصيل ونقبل ونرفض، ثم نراجع ونعدِّل، وقد نعود لنقبل ما رفضناه سابقًا، تلك هي الحياة حركة دائمة متواصلة، وتصبح رحلة الحياة شديدة المتعة حين يشتد فيها الجدل والنقاش؛ لنخرج بأفكار جديدة طازجة، تجعل من حياتنا أكثر إبداعًا، فالجدال والنقاش نشاط عقلي حيوي وضروري، وهو يستلزم دائمًا انفتاحًا عقليًا على الحياة والمعرفة.

يقول ديكارت: "أنا أفكر، إذن أنا موجود".
فالوجود مرتبط ارتباطًا عضويًا بعملية التفكير، والتفكير والتأمل عمل عقلي ممتع ومثير، يفتح آفاقًا حياتية جديدة ومتجددة.

ويقول أوسكار وايلد Oscar Wilde: " إذا لم تفكّر لنفسكَ، فأنتَ لا تفكّر على الإطلاق".
فلن نحيا دون أن نفكّر، ونجرب.

يتعلَّم الإنسان في تلك الحياة من خلال التجربة العملية والفكرية، فمهما قرأ الإنسان عن مكانٍ ما، فالزيارة الميدانية تجربة مختلفة تمامًا، فشيكاغو ليستْ كما كانت تصوِّر الأفلام، الأماكن سواء في الأعمال الأدبية، أو الأفلام مختلفة كثيرًا عن الواقع، ولن تنتهي الحيرة والتساؤلات حتى وإنْ سافرنا، تلك هي الحياة، حيرة عقلية ممتعة، وكلما زادتْ لدينا الأسئلة، كلما زاد الشوق إلى البحث والمعرفة، دعونا نعرف، ومن ثمَّ نعيش.

فالأفكار الجاهزة والمعلبة دائمًا تحاصرنا، وعلينا أنْ نتعامل مع ذلك بثورة تحليل لكل ما يخرج إلينا.

حين نسافر كثيرًا، ندرك أكثر الواقع الذي نعيشه، وهو أمر شديد التعقيد في الخبرة الإنسانية للحياة، نعرف أكثر، فنزداد حيرةً وأحيانًا شقاءً، قد لا ترضى عن الواقع، وتعجز عن تغييره حين يكون الأمر ليس بيدكَ، وهنا قد تُحبط، لذا فلابد دومًا من وضع أهداف واقعية قابلة للتحقيق، ووضع تلك الأهداف يستلزم أساسًا تفكيرًا عمليًا وعلميًا حتى يتحقق ما يرنو له القلب.

ورسالة إلى "علي" من فيلم الإرهابي، وكل شخصٍ كان يعاني ما كان يعانيه، جادل، ناقش، ارفض، اقرأ، سافر وتعلَّم، ولا تخف إنْ ازددتَ حيرة، فالحياة حيرة عقلية ممتعة.

سؤال بريء:
مَنْ يكون "علي"؟...
ومَنْ يكون أمير الجماعة في المشهد السياسي المصري؟.

(٢)

"الكلمة نور وبعض الكلمات قبور"

" عبد الرحمن الشرقاوي"

تبقى الكثير من الكلمات في ذاكرة التاريخ سواء كان تأثيرها إيجابي أم سلبي، هام أم تافه، عشوائية أم عقلانية.
والكلمات ذات التأثير هي تلك القادرة على إحداث تغيير فعلي في أرض الواقع، لذا فهي منطقية عقلانية وواقعية، وعلى مدى التاريخ قيل للمصريين (ارفع رأسكَ يا أخي، فقد ولى عصر الاستعمار)... قالها "ناصر" كثيرًا وصدقه الكثير، ولاشك أنَّ الجملة مشجعة ومبهجة، لكنْ هل كان "ناصر" قادرًا على تحقيق ذلك فعليًا؟.

دائمًا ما أتذكر تلك الكلمات، حين يتردد إلى سمعي الكثير من عشوائية استخدام الكلمة من قادة دولٍ كبرى في كافة أنحاء العالم، يقول السيد "نجاد": (لابد من محو إسرائيل حتى يحلَّ السلام في الشرق الأوسط).. وبنظرة متأملة لتلك الجملة تدرك مدى العشوائية في استخدام الألفاظ، فما هي آليات محو إسرائيل؟ ماذا يعني استخدام كلمة محو؟ فتلك الجملة تمتلك كل مقومات العشوائية اللازمة لتشجيع ثقافة اللامنطق، قد تتفق تلك الجملة مع هوى الكثيرين، لكنْ ما مدى قابلية ما يقوله السيد نجاد للتطبيق الفعلي في أرض الواقع، ونتأمل.. ماذا قدمتْ فعليًا إيران للقضية الفلسطينية؟ نجد أنه ليس إلَّا بعض الكلمات.

ثم نظرة أخرى شديدة الواقعية للواقع الاقتصادي لإيران، مستوى التعليم، مستوى الحريات، مستوى الجامعات الإيرانية على مستوى العالم، تلك الأشياء هي ما يجب بذل الجهد من الجانب الإيراني، فليستْ القضية هنا هي القدرة على استخدام كلماتٍ قوية ومثيرة لمشاعر عموم الناس، لكنَّ المقصد والطريق هو أنْ يستمتع عموم الناس بحقوقٍ أكثر، وفرصٍ أكبر للحياة الكريمة، فمن حق المواطن الإيراني أنْ يكون هو الهدف والمرام، ولكنْ من الواضح أنَّ النظام الإيراني لا يقدِّم سوى كلماتٍ.

استخدام الألفاظ بتلك العشوائية ما هو إلَّا مراهقة سياسية يستخدمها قادة أقرب كثيرًا إلى العشوائية من المنطق.

كان السيد "نجاد"، وتلميذه النجيب السيد "حسن نصرالله" من المؤيدين لأحداث ٢٥ يناير، مناصرًا لدفاع الثوار المصريين عن الحُرِّية والعدالة، وهنا تكمن المفارقة، فالسيد نجاد يناصر مطالبة المصريين بالحُرِّية، ويرفضها في بلاده، فقد تعامل ومازال يتعامل بعنفٍ شديد مع أي معارضة.

وحين يُدين السيد "نجاد" مساعدة وانحياز الولايات المتحدة الدائم لإسرائيل، تجده في نفس الوقت يساند حزب الله ماليًا وعسكريًا، ويغض النظر عن مقتل المتظاهرين في سوريا، واللُّعبة السياسية تحمل في طياتها الكثير من التعقيدات التي يستحيل معها أنْ تستخدم ألفاظًا عشوائية، ومن ثَمَّ فخروج نجاد ونصرالله من التأثير التاريخي في تقديري أمر حتمي، ومن هنا وبتأملٍ دقيق سوف نجد أنَّ السيد نجاد وغيره من محترفي الكلمات الرنانة والتي قد يستحيل

فعليًا تنفيذها، سوف يبقون لفترة ثم يرحلون، ونحن نتساءل عن جدوى ما قدموه.

لا أستطيع حتى الآن أنْ افسر.. ماذا يعني أنْ تقوم الهيئة الدينية في إيران بتحديد الشكل الذي يجب أنْ تكون عليه تسريحة شعر الرجال؟ وهل للطريقة التي يصفف بها الرجل شعره أيَّة علاقة بالتنمية أو النماء؟.

القيمة والقامة السياسية تتكون من خلال عدة عوامل، أهمها: الحريات المطلقة، التقدُّم العلمي والتكنولوجي، التعليم القائم على الإبداع، الديمقراطية، المحافظة على السلام، الاستعداد العلمي والواقعي لأيَّة مخاطر عسكرية، التسامح الثقافي وقبول الآخر، التنمية المستدامة.

وتأمُل أخير لما قام به مهاتير محمد لماليزيا، لأدركنا الفرق بين محترفي الكلام ومحترفي الحياة، ماذا كانت أولويات مهاتير؟ التعليم والبحث العلمي وإرسال البعثات العلمية للخارج، فواقعية مهاتير محمد لابد وأنْ تُخرس هؤلاء، فكفانا كلامًا؛ لأنه سوف يؤدي يومًا ما إلى مزيدٍ من الكلام ليس إلَّا.

فالكلمة نور حين تصدر من عقلٍ يحكمه المنطق، والكلمة قبر حين تصدر من صوتٍ عالٍ منسوج بغزل الانفعال ـ العشوائية واللا واقعية ـ ولو كانت الشعارات والكلمات الرنانة قادرة أنْ تحلَّ أيَّة قضية، لكان العرب اليوم في صدارة المشهد.. لكنَّ الحكاية ليستْ أبدًا كذلك.

(٣)

مسرح العبث

لماذا يلجأ المسيحيون في مصر إلى التحايل على القانون عند بناء دور العبادة؟ فيحصلون على تصريح لبناء مبنى للخدمات، وبعد مرور بعض الوقت يقومون بتحويله إلى كنيسة، هل يحتاج ذلك السؤال إلى إجابة؟ يبدو سؤالًا عبثيًا!.

في مسرحية صمويل بيكيت الشهيرة "في انتظار جودو" ينتظر شخصان شخصًا يدعى "جودو" لا يأتي أبدًا، وهم لا يعرفون.. لماذا لا يأتي؟ وإذ كان سيأتي أم لا، وتنتهي المسرحية، وهما ينتظران.

وتبدو القصة في ثقافتنا المصرية الحالية أكثر عبثية مما كتبه "بيكيت" المشكلة في معظم الأحيان هي عدم وجود مشكلة حقيقية أساسًا، فنحن في مصر نحاول دائمًا إيجاد حلًا، يرضي جميع الأفراد بنسبة تتناسب مع مدى قوة وتأثير كل فردٍ في المجتمع، وهذا هو العبث واللامعقول معًا.

ما حدث في إمبابة، الكشح، أطفيح، المنيا، الزاوية الحمرا، ماسبيروا سيناريوهات مختلفة لنفس العبث، حين نحاول جاهدين النظر فيما يحدث، ونقترح الحلول، ونتكلَّم عن سيادة القانون، وقانون دور العبادة الموحد، أبدًا لا نجد الحل كما لا يأتي "جودو"

أبدًا، فغالبًا ما تبدأ المناقشات والاقتراحات بالحديث عن أشياء أخرى غير المشكلة الحقيقية، نتحدث عن الوحدة الوطنية، وذكريات المحبة بين المسيحيين والمسلمين، ولا مانع من ذكر اليهود أحيانًا، وهذا هو العبث إذ أننا نتكلَّم عن المحبة في حين أنَّ ما يجب عمله هو التحقيق في جرائم قتل، قطع اذن، هدم دور عبادة، إرهاب الآمنين، تكدير الأمن العام، وإشعال الفتنة الطائفية.

والسؤال الثاني.. ما هو الضرر الذي يقع على بعض المسلمين عند بناء دور عبادة للمسيحيين؟ فيحاولون تصحيح هذا الخطأ القانوني بهدم الكنيسة.. هل بعض المسلمين هنا يدافعون عن القانون؟ هذا أيضًا سؤالًا عبثيًا!

هل بعض المسلمين يُستفزون من القبة والصليب؟ هل من حق الأفراد مهما كان انتماؤهم الديني أنْ يطبقوا القانون بأيديهم أم هذا هو قانون الأغلبية ضد الأقلية؟ لماذا يجد بعض المسلمين بناء دور العبادة أمرًا يسيرًا، ويرى المسيحيون صعوبات باتتْ تصل إلى المستحيلات في أمر بناء الكنائس؟ وكيف يمكن لمحافظ أنْ يترك الأفراد تطبق القانون بأيديهم ثم يستحسن ما فعلوا؟ وأين السيد/ عصام شرف، والمجلس العسكري من كل هذا؟ كل ما ذُكر أعلاه أسئلة عبثية.

يوجد خلل شديد في المجتمع المصري، ينص الدستور المصري على حرية المعتقدات، لكنَّ الرسالة لم تصل أبدًا إلى كل فئات الشعب، ولا يستمتع بهذا الحق جميع المصريين، يوجد بمصر بهائيون ولا دينيون، وربما أيضًا أصحاب معتقدات أخرى لم ألتقي

بهم حتى الآن، فهل الجميع متساوون أمام القانون؟! سؤال لابد وأنْ يجيب عليه كل المعنيين بالشأن المصري، حكومة ومجلس عسكري، ولابد للشعب هنا أنْ يكون له موقفًا محددًا.

"مَنْ شاء فليؤمن، ومَنْ شاء فليكفر" من أهم مبادئ الحضارة الإسلامية، فماذا حدث؟!.

إنَّ حرية الاعتقاد، وحرية ممارسة العقيدة هما من أساسيات كل القوانين الدولية في أغلب أنحاء العالم، فهل لنا أنْ ننتمي إلى العالم الحقيقي، عالم التسامح وقبول الآخر كما هو، فمَنْ أراد أنْ يبني دارًا للعبادة فله مطلق الحُرِّية في ذلك، طالما وجدتْ قوانين عادلة تتعامل مع كل المواطنين بعدلٍ ومساواة دون تمييز.

الحُرِّية هي الجسر الوحيد القادر على أنْ يحملنا إلى العالم الحقيقي، مهما اختلف ما يؤمن به شخص ما عن الآخرين، فليس للآخرين الحق في التعامل مع الشخص الآخر بناءً على ما يؤمن به.

تمييز جماعة عن أخرى كما هو الحال في الشأن المصري بخصوص بناء دور العبادة، أمر يوحي باستحالة ممارسة الديمقراطية الحقيقية في مصر.

من أهم خصائص المجتمع الديمقراطي أنْ تشعر الأقلية أنَّ لديها نفس حقوق الأغلبية، فهل يأتي اليوم الذي نصبح جميعنا مصريين مسلمين، مسيحيين، بهائيين، بوذيين ولا دينيين.

(٤)

الابنة الشرعية للحرية

أحد التعريفات الكثيرة للحضارة، هو الإنجاز المادي لثقافة ما، أهمية العلم والتفكير المنطقي في مجتمعٍ ما، ينتج عنهما مخترعات كالكمبيوتر والأجهزة الإلكترونية المتطورة، فلن تستطيع ثقافة تؤمن بالخرافة والجدل أنْ تصبح حضارة عظمى مثلًا، فماذا أنجزنا حتى الآن؟ هل سنضع حلولًا لمشاكل التلوث، التعليم، احترام الحياة الخاصة للآخرين، البلطجة والعنف، والمواصلات معتمدين على شعارات ووعود، كفانا شعارات، قد ولي عهد الكلمات، ويبقى فقط القدرة الفعلية على الإنجاز؛ كي نتحول من ثقافة كلامية إلى ثقافة قادرة على الإنجاز والفعل، فنتحول بذلك إلى حضارة .

ومكونات الحضارة في العصر الحديث، تقوم على التفكير العلمي والمنطق، وهما يغيبان تمامًا عن المشهد المصري المعقد.

فكثيرًا ما تثار قضايا عبثية، تلهي الرأي العام عن النظر في القضايا الحيوية.

الشارع واقعي تمامًا، ومصلحته سوف تبقى دائمًا هي المحك، فالشارع بالأساس يعنيه أنْ يعيش حياة كريمة تليق به كإنسان، وأيضًا حرية وكرامة وعدالة، فالشعارات الدينية قد تحرك مشاعر

البعض في لحظاتٍ، لكنَّ اللُّعبة أكبر من ذلك بكثير، وهؤلاء الذين يستخدمون الستار الديني كي يثبتوا مدى قربهم من الدين، وبالتالي مدى قدرتهم على حل المشاكل، قد يقعون في إشكالية الخلط، فالتيارات الدينية ترفض حتى مناقشة المبادئ فوق الدستورية، وهم الهابطون على انتفاضة التحرير بالباراشوت.

إنْ لم تؤمن تلك الانتفاضة الشعبية، ومسئولي الدولة حاليًا بالحُرِّية المطلقة في كافة مجالات الحياة، فما حدث لا قيمة له، فالحُرِّية هي الأساس الذي يولد منه الحضارة، ونظرة إحصائية على أهم الدول المتقدمة في العالم في الوقت الحالي من اليابان في أقصى الشرق مرورًا بسويسرا، ألمانيا، السويد وصولًا إلى كندا وأمريكا والبرازيل، سوف نجد أنَّ نعيم الحُرِّية المطلقة هو أحد أهم روافد الحضارة الحديثة لتلك الدول، فلا حضارة دون حرية مطلقة.

ونظرة بسيطة للوضع المصري الحالي، تجد حربًا كلامية حامية دون نتيجة محددة، سوى محاولة إثبات الفساد الفكري للطرف الآخر ـ ضجيج بلا طحين ـ ليتنا نفعل شيئًا غير الكلام.

لو أنَّ فردًا واحدًا في الشعب المصري كله، قرر أنْ يختلف بل لو اختلف مع العالم كله، يظل له الحق الأصيل في أنْ يفكّر بطريقته، ويعبِّر عنها كما يشاء، ويقول المفكر الليبرالي الكبير جون ستيوارت ميلJohn Stewart Mill : "إنَّ الشعب يتوقف عن كونه تقدميًا عندما يكف عن امتلاك الفردية، ويحرم التفرد".

من الخطورة بمكان أنْ يتصور أي آخر أنَّ لأفكاره أي قدسية، طالما تشارك بالمعركة السياسية، فعليكَ خلع العباءة الدينية وإلَّا سوف ندخل في جدالٍ مع ما تعتبره مقدس، وننسى أنَّ اللُّعبة كلها نسبية وبلا ثوابت، والفردية هي ما تجعل الفرد يحتفي بنفسه، وبكونه مختلفًا مهما كره المحافظين، فالتفكير المحافظ يستمتع بوضع حلول ترضي جميع الأطراف، فأغلب المثقفين حاولوا جاهدين الدفاع عن رواية نجيب محفوظ "أولاد حارتنا" وأصدروا أحكامًا على ما يقصد حقًا نجيب محفوظ، رغم أنه هو نفسه لم يعنيه دفاعهم؛ لأنَّ في النهاية العمل الأدبي عمل خيالي لا تنطبق عليه التفسيرات الدينية المطلقة، ودفاعهم عن الكاتب الكبير عبثي؛ لأنه يكرِّس فكرة الحق في قتل الكافر من وجهة نظر الطرف القاتل، فليس لأي طرفٍ مهما كان أنْ يسأل الآخر عمَّا يؤمن به، فما يعتده الفرد حقًا مطلقًا لا مساس به.

لن تنهض أُمة لا تؤمن بحرية الفرد المقدسة.. الحُرِّية هي الحل.

(٥)

ليس طريقًا واحدًا

المتأمل للحال المصري، لابد أنْ يسترعى انتباهه مدى اللخبطة وخلط الأشياء في حياتنا، فنحن نربط ما هو ديني بكل مناحي الحياة حتى لو كان غير مرتبط، فنمتدح لاعبًا ما؛ لأننا معجبون بأخلاقه وتدينه، رغم أنَّ ذلك في الغالب علاقة بين الإنسان وربه، ولا يعلمها مَنْ هم حوله.

فكيف نقيِّم موهبة أبو تريكة ومارادونا وميسي، وننحي جانبًا تصورنا الأخلاقي عنهم! وهل نقيِّم تاريخ الدكتور محمد البرادعي السياسي والمهني ومواقفه الوطنية بمعزلٍ عمَّا يعرف عن الإسلام؟! فمن الطبيعي أنْ يعرف البرادعي عن الإسلام، وليس لأحد الحق أنْ يسأله عن مقدار معرفته، والسؤال الآن: لماذا ينشغل مواطن بتلك المعلومة؟!

على حد علمنا جميعًا البرادعي رجل سياسي، وليس رجل دين، فما مدى فاعلية وأهمية أنْ تسأل رجل سياسي عن مدى تدينه، أو تتهمه بالتدين من عدمه، فهل أصبح البشر في موضعٍ يسمح لهم بإقامة محاكم تفتيش في ضمائر الآخرين؟! وكأنما أصبحنا نقيِّم أداء الآخرين بمدى اقترابهم، أو ابتعادهم عمَّا نعتقد نحن بأنه الحق المطلق.

وكنا في زمانٍ سابق، نقول: "إنَّ لكل مقامٍ مقال" وأصبحنا نجابه بمَنْ يقول إنه قول واحد مهما قال الآخرون.

ومهما بلغتْ معرفتنا بشخصٍ ما، يظل تدينه أمرًا يصعب التكهن به، لكنْ في وطننا العزيز نحن دائمًا في حالة انشغالٍ دائم بتحليل أخلاق الآخرين وإعطائهم تقديرات، ونحن نعلم يقينًا أننا غير منوطين بذلك.

والتفسير الغالب دائمًا إنْ كان الشخص متدينًا فإنَّ الله يكرمه، وهذا مثير للعجب، إذ أنكَ مهما تدينتَ وصليتَ، فلن يتعلق هذا من قريبٍ أو بعيدٍ بممارسة الرياضة، الله لا يكافئ الفريق الأكثر تدينًا فيحرز أهدافًا أكثر.

حينما نقرر إعمال العقل والمنطق في الحياة، فسوف نحدد ما هو ديني وما هو دنيوي، ومن ثَمَّ سيكون المنطق هو الملجأ والطريق، إذ يصبح الدين مكانه دار العبادة، والشئون الدنيوية هي إدارة الحياة بما يمليه الواقع من احتياجات، والتعامل مع الواقع يتطلب دائمًا المعرفة والتجريب، وفى التجريب نُصيب ونخطئ.

ومن المثير للعجب طرح أسئلة على مرشحي الرئاسة من التيار الديني، مثل: هل ستسمح بالمايوه البكيني والمشروبات الكحولية؟ وكأنَّ المرشح المحتمل أو حتى الرئيس، من حقه أنْ يفرض علينا أسلوبًا ما للحياة.

لن يجرؤ رئيس أو غفير أنْ يملي علينا كيف نعيش، فهذا حق أصيل للفرد، مهما اختلف عن الآخرين.

فحق الاختلاف لابد أنْ يكفله الدستور للجميع، جزء من طبيعة الحياة أنْ يتفرد الإنسان بما يتوصل له خياله، وبحثه الدائم نحو معرفة بواطن الأمور، واكتشاف أسرار الكون من خلال العلم والفكر الحر والمنطق.

وهذا ما يفسر تعرُّض كثير من العلماء والمفكرين للاضطهاد عبر التاريخ بدءًا من جاليليو، طه حسين، سلامة موسى، ابن رشد، وهذا ما يفسر أيضًا سر تفوق الدول التي تتبنى التفكير العلمي منهجًا للحياة، إذ أنَّ العقيدة الأساسية في دول العالم المتقدم، تنحي الخرافة والعشوائية جانبًا؛ ليحلَّ محلهما المنطق والحُرِّية المطلقة وسيادة القانون.

وحيث يسود الآن اللامنطق والعبث، نجد فتاوى كثيرة تتحدث عن السياحة وفقًا لشرع الله، وكأنَّ الناس تأتي إلى مصرنا العزيزة حتى نعطيهم دروسًا في التقوى والأخلاق، مع العلم بأنَّ إحدى الشكاوى الدائمة من السائحين هي التحرش الجنسي، ناهيكَ عن الاستغلال وسوء المعاملة أحيانًا.

وهل ستمارس البنات الألعاب الرياضية، مثل: التنس، والباليه المائي، والسباحة، وغيرها من الألعاب وفقًا للرؤية القاصرة لبعض السلفيين للحياة؟! فالحياة كما يراها البعض منهم ما هي إلَّا موت محقق، لكننا سنحيا، نثور، نغني، نتعلَّم، نخطئ ونُصيب في رحلة الحياة.

(٦)

أمراض سياسية

"أنا مش هاموت بالمرض اللي عندي، أنا هاموت بالمرض اللي عندكم"... هذا ما قالته أسماء في واحدٍ من أهم الأفلام المصرية: "أسماء" وهو يعكس إحدى حقائق المشهد المصري السياسي والاجتماعي، إذ تعاني كثير من شعوب العالم من أمراض حكامها، فسياسيًا ومنذ أمدٍ بعيد تقتلنا أخطاء السياسيين الواحد تلو الآخر، ولا نكاد نحاول الوقوف من آخر هزيمة حتى نهزم من جديد، والأمراض السياسية كثيرة ومتنوعة، منها المزمن، ومنها العارض، والمتأمل بعمق فيما يحدث في تلك الأيام سوف يدرك أنَّ أهم الأمراض الحاضرة الآسِرة، هي هيمنة الأيديولوجية والفكر السياسي العقائدي على تفسير الواقع، مهما اختلف ما يتطلبه الواقع مع الثوابت الفكرية لهذه الجماعة أو تلك، ومهما كانت أهمية العقيدة السياسية التي يتبناها فريق ما، فعدم قدرة ذلك الفريق على قراءة الواقع وتحليله، ومن ثَمَّ اتخاذ منحى يتناسب مع الظرف الراهن، هو فشل سياسي حتمي، لذا فالسياسي الناجح هو القادر على الاستجابة للتغيير بمرونة تمكنه من التعامل مع الواقع ومتغيراته.

وفِهم الواقع وقراءته يحتاجان إلى معرفة ووعي شديدين، فسياسيًا ومنذ محمد علي باشا أدى عدم قدرته على فِهم مدى قوة الغرب،

وكيفية التعامل مع تآمر الغرب ضده إلى انحسار مشروعه "النهضة" في ذلك الوقت، وصولًا إلى "ناصر" وعدم رؤيته الواقعية لقدرات الدولة المصرية إبان حكمه، وتمسكه بأنَّ الغرب يتآمر ضده، لكنْ.. ما الذي قام به للتعامل بواقعية وحرفية سياسية مع هذا التآمر؟ وهذا يعكس مدى قصور الرؤية والفعل لديه، فالوعي بمشكلةٍ ما يتطلب معه إدراك حجم قوتي الحقيقية لإيجاد حلولٍ واقعية أكون قادرًا على تنفيذها، ومن البديهي وجود صراع للقوى الدولية الكبرى، ومحاولات حثيثة لتقليم أظافر القوى الناشئة، وحين يخبرنا بشار الأسد بوجود تلك المؤامرة، فإنَّ الجميع ينتظر منه كيفية التعامل مع الأزمة الحالية، وليس مبررات حدوث الأزمة، والأزمة السورية شديدة التعقيد، ولن تُحل إلَّا بخطواتٍ جدية على الصعيدين المحلي والدولي، وليس بالتحديد الجزئي للمشكلة، وهو ما ينتهجه النظام السوري، ومن الواضح وجود مشكلة داخلية بسوريا، ولن تُحل سوى بحلولٍ جذرية واقعية إبداعية وسريعة، فالتعامل السوري مع الأزمة الراهنة لا ينبئ بأيَّة حلولٍ واقعية ممكنة.

وينسحب هذا القصور ذاته على الرئيس السابق حسني مبارك في عدم قدرته على حل المشاكل الاقتصادية الملحة، أو الاستجابة السريعة للتغيرات الحادثة بالشارع السياسي، وقصور فكر إدارة الأزمة في المطبخ السياسي المصري أدى إلى إنهاء مشواره السياسي بتلك الطريقة.

وبما أنَّ أحد تعريفات السياسة أنها فن الممكن، فسوف ينسحب القصور ذاته على المطالب غير الواقعية لمَنْ تبقى في ميدان التحرير، فعدم وجود برنامج واضح ومحدد، وقائد ذي شعبية هو ما جعل الأمور تسير على نحوٍ ما في اتجاه فوضوي عبثي أكثر منه تنظيمي بنائي.

وبنظرة متأنية لأمثلة أخرى وتحديدًا "موجابي" رئيس زيمبابوي، فهو زعيم أفريقي كبير، وكان له دور نضالي لا ينكره الجميع في كل أنحاء العالم، لكنه حين قام باتخاذ قرارات اقتصادية كان من شأنها وصول الاقتصاد الزيمبابوي إلى مرحلة شديدة التدهور تصل إلى الكارثة، في هذه الأثناء فقد موجابي ثقة شعبه رغم نضاله التاريخي.

النضال الثوري في ميدان التحرير لا يعطي ميزاتٍ أكبر للثوار، فالطرح العبثي لفكرة أنَّ الثائر يحكم، غير منطقي أو غير عملي، من كبرى الكوارث التي حلَّتْ بمصر حكم الجيش بعد الانقلاب العسكري ١٩٥٢م، فقيام الجيش بتولي جميع الأمور في تلك المرحلة من تكوين الحكومة، وجميع شئون الحكم في أمورٍ لم يكن لديه دراية كافية بها، أدى إلى كوارث في جميع المناحي.

حين يمرض الحاكم بإدمان السلطة، ويحاول أنْ يبقى مدى الحياة، فهو يميت شعبه كل يومٍ، ويموت الشعب بسبب أمراض حكامه، فهل نرى يومًا حكامًا لا يجلبون موتًا لشعوبهم، أم نرى شعوبًا تجلب حكامًا يدمرونها؟!. لنرَ.. ماذا سنفعل بأنفسنا؟.

(٧)

"لا تستوحشوا الحق لقلة سالكيه"

هذا ما قاله "علي بن أبي طالب" منذ أمدٍ بعيد، وحيث إنه كان يخاطب عموم الناس فقد استخدم "لقلة سالكيه" أما إذا وُجِدَ في العالم السياسي اليوم، وحاول إعادة نفس الكلمات، فإنه قد يستخدم "لندرة سالكيه" فمن النادر في عالم السياسة اليوم وأمس وغدًا أنْ تجد هؤلاء السالكين بالحق، لكنَّ السؤال الآن: ما هو الحق؟.

فالحق والحقيقة دائمًا وأبدًا هما أمور نسبية، ويتوقفان بقدرٍ هائل على كيفية رؤيتنا للحياة، إذ ترى الولايات المتحدة الأمريكية أنها بغزو العراق وأفغانستان كانت تحمي الأمن القومي الأمريكي، أو لنقلْ أيضًا هذه الرسالة التي تصل إلى المواطن الأمريكي، ويصدقها الكثيرون، ويرفضها الكثيرون أيضًا، وحين تحلّل في ضوء هذا الموقف.. ما هو الحق؟ وأين الحقيقة؟ تجد نفسكَ حائرًا، إذ يتعين عليكَ فِهم طريقة تفكير القوى العظمى، والأساليب الاستراتيجية في تعريفهم للأشياء، ومن ثمَّ قد يكون هذا الحق هو نفسه باطل لآخرين، ويقاس على ذلك أيضًا تعريف حكومة إسرائيل لما يسمى أمن إسرائيل، وموقف روسيا والصين وإيران وحزب الله وبعض الأطراف بسوريا من الأزمة هناك، وموقف الزعيم الراحل "غاندي" حين طالب الأكثرية الهندوسية بالمحافظة على حقوق

الأقلية المسلّمة، وكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية لاغتياله، عن طريق هندوسي وجد أنَّ ما يقوم به "غاندي" يُعد تعديًا على حقوق الأكثرية الهندوسية، وقد لام الكثيرون "غاندي" في مسألة انفصال باكستان عن الهند، أما هو ولكونه زعيمًا روحيًا وليس سياسيًا بالمرة، فقد رأى الحق كفكرة واحدة بسيطة صريحة ليس بها أي التواء، فقد كان يؤمن بالحُرِّية بطريقة مطلقة، وليس كما يعرفها السياسيون حسب المصلحة، وأما المصلحة في القاموس السياسي فهي الجوهر والأصل، والباقي مجرد فروع.

وبما أنَّ المصلحة هي الجوهر والأصل في الفكر السياسي، فكي نحقق ما نصبو إليه علينا التأمُل بواقعية في المشهد السياسي، ومدى ارتباطه التلازمي بقوة بالاقتصاد والتعليم، فالدول العظمى في عالم اليوم لديها تعليم رفيع المستوى، يشجِّع التفكير النقدي، ويطور مهارات التواصل والاتصال والإبداع، واقتصاد قوي منتج وتنافسي، ومن ثَمَّ أصبحتْ دولًا ذات ثقل ووزن سياسي، فالدول العظمى دول كبيرة ليس لأنها تتبع الحق أو لديها الحق، لكنْ لأنها الدول التي تصنع فارقًا في أرض الواقع، فهي دول قادرة على تغيير الواقع، إذ هي الدول التي تنتج التكنولوجيا، وتطوِّر الصناعات الحديثة، وتشجِّع العلم والعلماء، فلن نغيِّر الواقع عن طريق الخطابة الجهورية بمجلس الشعب، سنغيِّر الواقع فقط حين نمتلك أدوات التغيير.

محاولات إيران الحثيثة لإنتاج قنبلة نووية، هو أمر يثير الدهشة من واقع فكرة الحق المطلق، فمن حق إيران أنْ يكون لديها سلاح

نووي، ومن واقع مستوى التعليم والاقتصاد فإنَّ محاولات إيران للقيام بذلك تكاد تصل إلى مستوى العبث السياسي، الواقع الاقتصادي الإيراني سيئ للغاية خاصة بعد العقوبات الاقتصادية، وازدياد معدلات التضخم لمستوى قياسي، فالمواطن العادي يعاني بشدة من وطأة قرارٍ سياسي متعجل، فلن ترتفع مكانة الدول باستيراد أسلحة متطورة، أو المحاولات المستمرة لإنتاجها، رغم عدم توازي ذلك مع مستوى التعليم والاقتصاد والحريات، فهل تعيد إيران قراءة الأولويات أم تتمسك بالحق المستحيل؟.

(٨)

وهذا في رأيي مرضٌ خطيرٌ

في رواية "باولو كويهلو" فيرونيكا تقرِّر أنْ تموت، تسأل فيرونيكا الطبيب النفسي المعالج لها بعد أنْ تمَّ إنقاذها من محاولة انتحار:

ـ هل شفيتُ؟

ويرد الطبيب:

ـ لا.. أنتِ شخصية مختلفة لكنكِ تحاولي أنْ تصبحي مثل الآخرين، وهذا في رأيي مرض خطير.

حين نحاول جاهدين أنْ نسير وسط القطيع، نتبع قائدًا ما دون سؤالٍ أو تحليلٍ، سوف تجد أنَّ فكرة الرئيس التوافقي تسير في نفس الاتجاه، تسير نحو الحشد والدعم لمرشحٍ بعينه بغية أنْ يصبح بلا دور، وتهيمن قوة بعينها على مقدرات الأمور، وسواء كانت تلك القوى هي المجلس العسكري، الإخوان المسلمون، السلفيون، أو حتى ما يطلقون على أنفسهم الثوريين، سوف تجد أنَّ الجميع يحاول جاهدًا نزع إرادة الشعب نزعًا، وحين يصبح الشعب دون إرادة سوف نتأكد تمامًا أنَّ الدولة سقطتْ، إذا كانت القوى السياسية حريصة حقًا على القيام بتغييرٍ حقيقي، فسوف تعطي الشعب فرصة حقيقية للتقييم، لكنْ بما أنَّ ثقافة الهيمنة قائمة، وفرض الرأي باسم

الوطنية متغلغل، فيجب على القوى السياسية مراجعة دورها الحقيقي؛ كي لا تصبح نسخة مكررة من كل الأنظمة السابقة.

وما يفعله اليوم الإخوان والسلفيون من إقصاء الأطراف الأخرى ما هو إلَّا اعتقاد وهمي أنهم يملكون أدوات تغييرٍ حقيقية، والحقيقة أنهم فقط وراء مغانم سياسية، وسوف يؤدي ذلك إنْ آجلًا أم عاجلًا لصراعاتٍ مريرة، قد تنتهي بنا خارج سياق العالم المتقدم، وتقربنا أكثر وأكثر من عالم الدول الكلامية الخطابية التي تتكلَّم ولا تنتج، فحين نقصي الفقهاء الدستوريين أمثال ثروت بدوي، يحيى الجمل، جابر نصار، ونختار وفقًا للهوى والميل فسوف نهوي ونميل نحو الهاوية السحيقة.

وهل أساسًا توجد معايير موضوعية للقيام بأي دورٍ في مصر؟ فغالبًا ما توزع الأدوار لأهل الثقة، وليستْ الكفاءة.

الإخوان رحبوا بالجنزوري، ثم انقلبوا عليه، أعلنوا في البداية أنهم سوف يترشحون على ٣٠ % من مقاعد البرلمان، ثم حاولوا الفوز بأكبر عدد ممكن من المقاعد، فصلوا دكتور عبدالمنعم أبو الفتوح لمخالفته قرار مجلس شورى الجماعة، ثم عادوا يُلوحون ويهددون بترشيحٍ آخر لمنصب الرئيس.. ماذا تريد الجماعة؟! مَنْ يمول الجماعة؟ هل للجهاز المركزي للمحاسبات الحق في رقابة حركة الأموال في الجماعة؟.

وهذا الحوار يلخص حال كثير من الأشياء في المجتمع المصري، وإنْ كان ينسحب بشكلٍ ما على العالم العربي، والعدد الكبير من

المرضى النفسيين الذين يحيون مثل القطيع يتبعون الجماعة، إما خشيةً من أنْ يصبحوا منبوذين خارج الجماعة، أو يخسروا النفوذ المصاحب لوجودهم داخل الجماعة، والجماعة في معظم الأحوال هي القوة الأساسية على أرض الواقع، وقد تكون دينية، أو اقتصادية، أو أشياء أخرى، وحينئذ يصبحون في موقف الفريق الأضعف، وهذا في حد ذاته انتهازية مقيتة، أو خوف قد يؤدي بصاحبه إلى الانسحاب من الحياة، واتخاذ موقف المشاهد للحياة لا المحرك للأحداث، أو حتى الثابت في مكانه معلنًا ما يعتقد هو رغم اختلافه عن التيار العام.

ولابد لنا في جميع الأحوال أنْ نتأمل حياتنا وما نتبعه.. هل نحن نتبع فكرًا ما عن قناعة، أم عن خنوعٍ وكسلٍ في تحليل وتفتيت تلك الأفكار واختبارها على أرض الواقع؟.

ولكي يقوم فرد ما بتحليل وتفتيت تلك الأفكار، لابد وأنْ يعي ما هو الواقع الذي يحيا فيه، والوعي بالواقع أمر شديد التعقيد حيث إنَّ ما يؤثر في حياتنا كثير ومتنوع، فمنذ لحظة الميلاد وحتى الممات، نمر بالكثير منه الإيجابي والسلبي، بدايةً من بلد الميلاد، ومدى الحُرِّية المتاحة، ومدى جودة النظام التعليمي الذي يدرِّب التلاميذ على التفكير النقدي، والتعلُّم من خلال جمع المعلومات من عدة مصادر، ثم تحليلها لاستنتاج معلومات أقرب إلى الحقيقة، ويدرك الطالب هنا مدى النسبية والتغيُّر الدائم لفكرة الحقيقة.

وعلينا أنْ نختار إما أنْ نسير مع القطيع، أو نختار حياتنا بأنفسنا، وبمعنى آخر إما أنْ نحيا أو أنْ نموت.

(٩)

يا عزيزي كلنا "مرشحون"

(الحُرِّية الصحيحة مرهونة بأنْ يكون الحر على علمٍ بالمجال الذي أراد أنْ يكون حُرًا فيه)...

هذا ما قاله الفيلسوف المصري د/ زكي نجيب محمود في كتابه الممتع "حصاد السنين" وما قاله ينطبق على ما يحدث في أرض الواقع حيث يختلط ما هو ديني بما هو دنيوي، الدور المنوط به السياسي والدور المنوط به رجل الدين، وأولوية أنْ يكون الشخص على علم ودراية بما يقوم به، لا تدور بالأذهان كثيرًا إنْ لم تكن نادرة الحدوث، فقط نتأمل محنة اللجنة التأسيسية للدستور وما آلتْ إليه، وأيضًا معظم لجان مجلس الشعب، ومدى هيمنة التيار الإسلامي حتى كاد يتفوق كمًا وكيفًا على رفيق الهيمنة السابق الحزب الوطني.

وقد يفاجئكَ الكثير بأنهم يساندون الشيخ أبو إسماعيل: د. أبو الفتوح، د. سليم العوا، والشاطر، وذلك بسبب الخلفية الدينية لكل فردٍ منهم، وقد يكون التقييم على حسب اعتقاد الفرد في اقتراب هذا المرشح أو ذاك من التدين كما في مخيلة صاحب ذلك الرأي، ولا شك أنَّ في ذلك خلط بين التوصيف الوظيفي لرئيس الجمهورية ومدى تدينه، فمهما تدين الفرد فهذا لا يضمن أداءً سياسيًا أفضل،

فإذا أردتَ أنْ تساعد ابنكَ في دروسه، فلن تبحث عن المدرس الأكثر تدينًا، بل دائمًا ما تبحث عن الأكثر كفاءة، وينطبق هذا على معظم أشكال الوظائف الحياتية.

لابد أنْ تحمل شخصية رئيس الجمهورية مصداقية، والمصداقية مفهوم عالمي تحترمه كافة الأديان وكافة الثقافات، أنْ تفعل ما تقول، ويكون الصدق في القول والفعل هو منهج الحياة، هذا هو الجانب الأخلاقي في رئاسة الجمهورية، وإذا تتبعنا قصة الشيخ أبو إسماعيل وجنسية والدته، وكثرة الروايات المتضاربة حولها، علينا أنْ نفكّر جديًا في مدى اقترابه وابتعاده من فكرة المصداقية، وتلويح الشيخ أبو إسماعيل باستخدام القوة ما هو إلَّا مؤشر خطير نحو توجه سياسي يلبس عباءة إرهاب الآخر.

وينسحب هذا على السيد/ عمرو موسى الذي ينتقد الفريق شفيق؛ لأنه كان رئيسًا للوزارة في النظام السابق مع أنه كان وزيرًا للخارجية، وقام الرئيس السابق بتزكيته كأمينٍ عامٍ للجامعة العربية، فليس كل مَنْ عَمِلَ تحت إدارة النظام السابق خائنًا أو عميلًا أو فلولًا، فمَنْ كان وزيرًا أو غفيرًا، كان يعمل في الدولة المصرية، ولم يكن يعمل لدى الرئيس السابق، والمعيار هنا هو مدى كفاءة وأمانة ذلك الفرد في العمل الموكل إليه، وينسحب ذلك أيضًا على الإخوان المسلمين الذين نعتوا كل أعضاء الحزب الوطني بالفلول، وهذا ضد أي منطق بسيط، فأنْ نقول أنَّ ٣ ملايين عضو كلهم فاسدين، فهذا كلام أبسط ما يقال عنه أنه كلام مرسل، يقال في مقهى وليس من سياسي يفترض البعض فيه أنه محنك وذو دراية،

وقد رأينا د. الكتاتني يرفع راية تطالب بطرد السفير الأمريكي من مصر في ٢٠٠٥م يوم كان في صفوف المعارضة، ثم يصافح السفيرة الآن، ويتحدث الإخوان المسلمون عن نزاهة الانتخابات، ولا يتحدثون عن المال السياسي الذي ساعدهم كثيرًا فيما وصلوا إليه، وقد هاجوا وماجو في قضية الجمعيات الأهلية، ومع ذلك فهم يرفضون توفيق أوضاعهم كأي جمعية أو مؤسسة تعمل في المجتمع، فغريب أنْ نطالب الآخرين بأنْ يفعلوا ما لا نطيق فعله.

ما كان يقلق المجتمع الأمريكي في القضية الشهيرة "كلينتون ـ مونيكا لوينسكي" هو كذب الرئيس تحت القسم، وليس سلوكه الشخصي الذي يتحمل هو عواقبه، فما يهم المواطن العادي في أي رئيس جمهورية، هو مدى قدرته على الأداء الجيد في إطار تنفيذه لمهام وظيفته، أما سلوكه الديني فهذا أمر لا يعلمه إلَّا الله، وليس كل مَنْ تحدَّث عن الله يعرف الله حقًا، فنحن نعرف الكثير عن الآخر من اتساق القول مع الفعل، وليس هذا التناقض الفج بين معظم ما يقوله الساسة وما يفعلوه.

وما نسمعه الآن يفتقد أبسط أشكال الدقة، فمعظمه عام ومرسل، فغالبية المرشحون للرئاسة يتحدثون بمنطق الوعود البراقة، وليس الخطة الواقعية محددة الملامح، وها هو الشاطر يقول: "هدفي الأول والأخير هو تطبيق الشريعة" وفي ذلك غزل صريح للسلفيين، فمن الواضح أنَّ الشاطر سوف يحاول بكل الطرق إثبات أنه شاطر، لكنْ.. هل هو كذلك؟!.

ولماذا تذكَّر مجلس الشعب فجأة أنْ يفصِّل قانونًا بعينه لإقصاء السيد/ عمر سليمان، وذلك فقط حين وُجدَ تعارض بين وجود سليمان ومصلحة الشاطر، فهذا الهطل السياسي يفتقد إلى أبسط أشكال الوعي بالمشاكل الحقيقية، ويغرقنا ليل نهار في أمورٍ إما أنْ تصب في مصلحة الإخوان أو تدفعنا نحو الهاوية.

قام أردوغان بتوزيع ١٥ مليون iPad على كل الطلبة، ومليون iPad على المدرسين، كخطوة نحو الاعتماد على أحدث تكنولوجيا داخل الفصل الدراسي، وهذه خطوة عملية نحو المستقبل.

ما أراه اليوم هو الضيق الشديد من الخطابة المدوية الوهمية، التي تأخذنا إلى الوراء خطوات نحو أوهامٍ نظرية غير قابلة للتطبيق، فمجلس الشعب الحالي وقيادات الإخوان والسلفيين لم نرَ منهم بصيصًا من الأمل، يمكننا من أنْ نتجه مع العالم المنتج نحو الأفضل، ولو جلس الشاطر مع أردوغان في نفس الفصل السياسي؛ لأصبح الشاطر في حالة حرجٍ شديد، إذ أنَّ الشاطر من فريق المتكلمين، وهذا فريق يتكلَّم ولا يحرز أهداف، أما فريق أردوغان فيتكلَّم حين يحين وقت الكلام، ويعمل معظم الوقت، فالشعب التركي لا يدعم أردوغان؛ لأنه أكثر إسلامًا من سابقيه، لكنْ لأنهم لمسوا نتائج ملموسة في أرض الواقع.. فهل نلمس شيئًا أم سيصرعنا السياسيين الحاليين بلمس الأكتاف، ويصبح الأمر أنه لا فِكاك من هذا المجهول ونقضي بقية العمر شعارات في شعارات.

(١٠)

خارج دائرة الحضارة

من المجحف أنْ نتصور توصيف شخصٍ ما في كلمة واحدة، فمهما كانت دقة الكلمة فلن تعبِّر عن الشخص بأي حالٍ، وحين نسمع عن مشروع قانون العزل وما ينص عليه، نجد فيه من عشوائية الفكرة ما يدعنا نتشكك في مدى الفهم السياسي الدقيق لمَنْ يمارسون السياسة في مصر.

هل القضية ترتبط بشخصنة القانون أم تجريد القانون؟ فالأساس في التشريع هو التجرُّد؛ لأنكَ حين تشرِّع، فأنتَ تحاول جاهدًا أنْ تصل إلى العدل المطلق، وتحاول أنْ تضع الآليات المناسبة؛ كى تساعدكَ في الوصول إلى غايتكَ، ومما نرى حولنا نجد أنَّ كل الأمور تبعدنا كثيرًا عن طريق العدل، وتوجهنا نحو قصورٍ مهني ووظيفي سوف يؤدي بنا إلى ظلمٍ بيِّن.

ففكرة قانون العزل السياسي فكرة شديدة الرقي، وأرى أنها حتمية بل يجب أنْ تكون جزءًا من الدستور المقبل، وذلك حرصًا على النزاهة، ومن أجل صالح الوطن، ومن هنا يجب أنْ يتم وضع المعايير الواقعية لممارسة العمل العام خصوصًا العمل السياسي، فيتم تحديد مقومات مَنْ يعمل بالسياسة والدور المنوط به، ومن ثَمَّ يتم تحديد متى يجب عزل أي سياسي، وذلك وفقًا لأمورٍ محددة،

منها ما يتعلق بالنزاهة، والأداء السياسي، وعدم استغلال المنصب أو إهدار المال العام، وبالطبع يستثنى الخطأ المهني؛ لأنَّ الجميع معرض للقيام بأخطاء مهنية، فهذا جزء أصيل من القيام بأي نشاطٍ إنساني، وحين يخطئ سياسي في تقدير أمرٍ ما، يجب ألَّا نصفه بالخيانة والعمالة لدولة أجنبية أو ما شابه، وإلَّا كنا جميعًا خونة وعملاء، وإذا تأملنا الموقف عن كثب فسوف يبدو لنا جليًا أنَّ "البلكيمي" و"أبا إسماعيل" أول مَنْ يجب عزلهما سياسيًا.

وحين يحكم ساسة الوطن الميل والهوى، فلن نخطو إلى الأمام بل سنهوى في هوة سحيقة، ولن يذكرنا التاريخ، سوف يذكر التاريخ دومًا نيلسون مانديلا؛ لأنه أحب وطنه "جنوب أفريقيا" أكثر من المصلحة الضيقة لمَنْ يشبهون لون بشرته، وقد أحبه البيض في جنوب أفريقيا كثيرًا، وقد اهتم بالنظر للأمام، ولم ينظر يومًا لتحقيق مآرب شخصية.

فى حلقة من برنامج حافظ المِرازي على قناة "دريم" استضاف النائبين عصام سلطان ونادر بكار ليتحدثا عن قانون العزل، واستضاف أيضًا مدير حملة السيد/ عمر سليمان، واحتج السيد/ عصام سلطان بأنه لم يبلَّغ بوجود مدير الحملة، وهو احتجاج منطقي ظاهريًا، وقد اتهم عصام سلطان في معرض حديثه السيد/ عمر سليمان بأنه قاتل، وهو لن يجلس مع قتلة، ثم انصرف غاضبًا ومعه "بكار" وذلك بعد مناوشات مع مدير حملة عمر سليمان، وبعض الحضور من مؤيدي عمر سليمان، والسؤال الآن هو: كيف نستضيف طرفًا اقترح مشروع قانون دون أنْ يأتي الطرف الآخر؛

ليعرض على الرأي العام وجهة نظره؟ ويحدث العكس كثيرًا في برنامج يسري فودة إذ أنه غالبًا ما يستضيف فريقًا واحدًا، يغني أغنية واحدة ذات لحنٍ واحد، وإذا كنا نريد بناء وطن، فعلينا أنْ نصبح أكثر دقة، وننحي الهوى والميل جانبًا، فقد نجد مخرجًا لعالم أكثر رحابة وتصالحًا.

ليس كل مختلفٍ خائنًا، وليس كل من تحدَّث باسم الدين هو الدين نفسه، يجب أنْ نفصل بين مَنْ يتحدث باسم الدين كشخصٍ وبين الدين، فالدين مجرَّد لمعتنقيه، أما الشخص مهما كانت درجته الدينية، ففي نهاية المطاف هو شخص يخطئ ويصيب.

فقد قال "بريخت" الكاتب الألماني: "تعسة تلك الأرض المنتظرة بطلًا" فهل نعي الدرس، ونتعامل مع الأفراد مهما علا أو قلَّ شأنهم كبشر، أم نستمر نكرر نفس الأخطاء والشعارات دون تأثيرٍ يذكر في حركة الكون، ونصبح بذلك خارج دائرة الحضارة التي تتعامل فقط مع الإنجازات، ونحن لا ننتج سوى بعض الكلمات؟.

(١١)

فقد أضاع ثلاثين سنة من عمره

"اعرف نفسك بنفسك"... هذه مقولة مكتوبة في معبد دلفى باليونان منذ أكثر من خمسة آلاف عام، ولكنْ يبدو أنها ليستْ جزءًا من الثقافة المصرية الحالية، ومَنْ يتأمل المشهد الضبابي الحالي، لابد أنْ يدرك مدى ابتعاد تلك المقولة عمَّا يحدث، ويبدو الجميع متلهفًا أنْ يلعب دور الرجل الأول، ومن ثَمَّ قد يصبح الرجل الأوحد، وحين يعلم الفرد قدراته الحقيقية، فإنه يستطيع التفوق فيما يقوم به، ويصبح مهتمًا فقط بأنْ يقوم بما يجيد فيه.

فى حوارٍ تليفزيوني للدكتور زويل، كان يحكي عن مناقشة مع ابنه ذي الثقافة الأمريكية، حيث قال له الابن إنه سيقوم بدور نائب رئيس الفصل.

ويضيف د. زويل أنه بثقافته المصرية سأل ابنه: ولِمَ لا تقوم بدور رئيس الفصل؟

لكنَّ الابن الذي يحيا في ثقافة تحترم كل الأدوار، شرح للعالم الكبير كيف أنَّ لكل شخصٍ دورًا منوطًا به، وعليه أنْ يؤديه بكفاءة، فليس المهم أنْ تكون رئيسًا، المهم حقًا أنْ تكون كفوءًا.

والمعيار الأساسي ليس مسمى الدور الذي تقوم به في الحياة، المحك الحقيقي هو مدى التأثير والفاعلية التي تتحقق، وبالتالي يتأثر

الآخرون إيجابًا من خلال قيامكَ بهذا الدور، قد تعمل بأرقى الأماكن وأعظمها لكنكَ قد لا تترك أثرًا، قد تصبح رئيسًا لبلدٍ ما، يلعنكَ الشعب صباحًا مساءً، وقد تكون عاملًا في مصنع، يمدحكَ الكل طوال الوقت.

وحين يصرِّح د. أبوالفتوح بأنه سوف يقود ثورة ثانية، إذا تمَّ تزوير الانتخابات، سوف تجد في ثنايا ما يقول رفضًا ضمنيًا لاحتمالية فكرة هزيمته قبل أنْ يكون رفضًا لفكرة التزوير، إذ أنه وقبله أبو إسماعيل لا يقبلان فكرة الهزيمة، رغم أنها أحد مكونات الديمقراطية، فقبل أنْ نتحدث عن التزوير، وكأنه تهديد لكل مَنْ تسوِّل له نفسه أنْ يغضِّب أبا الفتوح وأبا إسماعيل، لابد أنْ نتحدث عن الآليات التي تتبعها الدول الكبرى لضمان نزاهة الانتخابات، وكان أولى بمجلس الشعب أنْ يأتي بأفكار جديدة، تعتمد على الخيال الخصب والإبداع؛ كي تساعد في وجود انتخابات نزيهة، بدلًا من لعبة السيطرة مع المجلس العسكري التي سيخسرها حتمًا، ولكنَّ الخاسر الأكبر في هذه الحالة، هو الشعب الذي يقوم بدفع أجور أعضاء مجلس الشعب من دخله المحدود، وقد كان بعض الناخبين لديهم أمل في تغييرٍ منظورٍ وملحوظٍ، لكنهم صدموا من هول قدرة الكتاتني وشركاه على إحياء الحزب الوطني من جديد، ومن آخر طرائف الكتاتني في المجلس أنه قرر تعليق الجلسات أسبوعًا دون أنْ يقوم بعدّ الأيدي بدقة حتى يتأكد من شرعية القرار، وقد سمعنا في بداية المجلس عن استخدام بعضًا من التكنولوجيا حتى يتسنى للسادة النواب أنْ يصوتوا آليًا، وليس برفع الأيدي، فكيف يطالب

بسحب الثقة من الحكومة، وهو في عجلة من أمره، وليس لديه حتى أسباب منطقية أو خطة بديلة، فمن الواضح انشغال الإخوان بأشياء كثيرة، ليس من ضمنها مصلحة مصر.

مَنْ يفشل عليه أنْ يبدأ من جديد، أنْ تفشل يعني أنكَ تحيا، الفشل جزء أساسي من عملية التنمية الحقيقية في الحياة، وهو يقودنا إلى تعلُّم أشياء جديدة، أشياء أكثر رحابة من أي شيءٍ آخر، وحين نعرف أنفسنا حقًا، ونعي تمامًا الدور المناسب لنا سوف نصبح حتمًا أكثر سعادة، حين نفكّر في مدى الاختلاف بين السياسيين قبل وبعد ٢٥ يناير، نتذكر مقولة الملاكم العالمي محمد علي "إنَّ الإنسان الذي يرى العالم، وهو في الخمسين من عمره كما رآه حين كان في العشرين، فقد أضاع ثلاثين سنة من عمره".. فهل السياسي المصري يُضيع حياته أم يُضيعنا نحن؟.

(١٢)

زيارة السيدة العجوز

في مسرحية "زيارة السيدة العجوز" لـ"دورينمات" تقع فتاة في حبِّ شابٍ من القرية، ويقيم معها علاقة، ثم يتخلى عنها، وتحاول اللجوء إلى القضاء لإجباره على الاعتراف بالجنين، لكنه يستخدم شهود زور ويهرب بفعلته، ثم تترك المدينة، وتعود بعد خمسين عامًا، وقد أصبحتْ شديدة الثراء، وكان معها كفن، وقد استطاعتْ فعليًا استمالة أهل القرية لها، ووعدتهم بالمال الوفير في حال قتل الحبيب السابق، ويبدأ أهل القرية في شراء أشياء كثيرة حيث إنها سوف تعطي لهم مبالغ كبيرة، ويقرر أهل القرية ضرورة قتله حتى يتسنى لهم أخذ الأموال، ويلجأ للشرطة فتتجاهله، ويذهب للقس لكنه لم يعره اهتمامًا، ويطلب منه أهل القرية أنْ ينتحر حتى يتسنى لهم الحصول على أموال السيدة العجوز، لكنه يقرِّر اعتزال أهل القرية، ويبقى وحيدًا حتى يموت، ثم ترحل كلارا إلى حيث أتتْ بعد أنْ تتأكد من أنَّ الحبيب السابق في العالم الآخر، وقد استطاعتْ بأموالها أنْ تفرض قانونها كما يحلو لها، وتوغل فكرة الانتقام في قلب كلارا لمدة تقترب من الخمسين عامًا، هو أمر مدمر لها قبل أنْ يدمر الآخرين.

فحين تسيطر فكرة الانتقام من الآخر على فكركَ، تجعلكَ لا تتقدم قيد أنملة، وتظل فكرة تدمير الآخر مسيطرة على عقلكَ، فتحيل حياتكَ إلى جحيمٍ، وحين تستخدم المال لتغيير إرادة الناخبين، فأنتَ تقوم بما قامتْ به السيدة العجوز.

وفى هذه المسرحية شديدة الواقعية التي تترجم الأنظمة السياسية حول العالم، وفى مصر تحديدًا حيث يتم العبث بالقانون كثيرًا تحت مسمياتٍ ضبابية، فيُطرح قانون معيب يسمى قانون العزل، تمامًا مثلما فُصِّلتْ التعديلات الدستورية في عهد الرئيس السابق ـ وكأنكَ يا أبو زيد ما غزيت.

وحين يجتمع المال والسلطة ليخرجا أسوأ ما في البشر، وحين اعتقد مجلس الكتاتني ـ سرور سابقًا وربما حاليًا ـ أنَّ عليه أنْ يصمم قوانين يستفيد منها التيار الإسلامى فقط في محاولة يائسة للاستيلاء على ما يستطيعون وضع أيديهم عليه، وحين تحاول الأغلبية في مجلس الشعب إصدار قانون لإعادة تشكيل المحكمة الدستورية، التي تتكون من عشرين قاضيًا من أهم القامات القضائية بمصر، سوف ندرك بما لا يدع مجالًا للشك كيف أنَّ هذه الأغلبية في المجلس "التيار الإسلامى" لا تبالي إلَّا بمصالحها الحزبية المؤقتة التي سوف تدفعنا دفعًا للخلف، وسوف نتذكر ما قاله المرشد العام للإخوان في حوار مع سعيد شعيب ردًا على قبوله فكرة أنَّ ليس لديه مانع أنْ يحكم مصر غير مصري مادام مسلمًا، وكان تعقيب عاكف "طظ في مصر وأبو مصر واللي في مصر" فهل نلوم المرشح الرئاسي دكتور أبوالفتوح؛ لأنه لم يستقل حينها بدافع

الوطنية، كما يلوم هو السيد/ عمرو موسى على عدم الاستقالة من منصبه اعتراضًا على ممارسات النظام السابق؟ لو كان كل وزيرٍ لا يرضى عن سياسة رئيس الدولة يستقيل لما بقي وزراء في مصر.

وحين يتهم دكتور أبوالفتوح الزعيم الراحل السادات بالانبطاح حين عقد معاهدة السلام مع إسرائيل، نجده يستخدم لغةً سياسية غير منضبطة، تتسم بعدم النضج السياسي، قد تتفق أو تختلف مع الرئيس الراحل، لكنْ حين نقوم بتحليلٍ سياسي لحدثٍ تاريخي محدد، يجب علينا وفقًا لتعريف السياسة الواقعية، وهي فن الممكن في الإطار التاريخي والزمني للحدث وفقًا للرؤية السياسية في هذا الوقت، وبحيث تتفق مع القدرات المادية والفعلية للدولة في لحظة اتخاذ القرار، وهذا ما لم يحدده لنا دكتور أبوالفتوح، وقراءة أبوالفتوح لذلك الحدث التاريخي لا تختلف بأي حالٍ من الأحوال عن قراءة عامة الناس، وغير المتخصصين في السياسة، وهي لغة غير سياسية وغير منضبطة، ومن الغريب أنْ يستخدم مرشح رئاسي اللُّغة بهذه الطريقة.

يقول دكتور زكي نجيب محمود في كتابه النفيس "حصاد السنين":
(عناء الكشف عن المجهول من سر الكون الذي يضن بنفسه أنْ يتبدى إلَّا لمَنْ سعى).

فهل نسعى نحو آفاق المستقبل الرحيبة أم نقبع في أوهام كثير من الكلمات الرنانة غير المنضبطة؟.

(١٣)

لكل شيءٍ تحت السماء وقت

أبسط ما يطلبه الإنسان في جميع أنحاء العالم هي الحُرِّية، أنْ يقرِّر ما يقوم به، من أبسط الأشياء إلى الأكثر تعقيدًا، ومهما حاولتَ تقييد الإنسان، فهو يحاول أنْ يتملَّص من القيود، مهما كانت بسيطة أو معقدة، وحرية أنْ تكون الشخص الذي تبغاه مهما حاول الآخرون إثناءك عن ذلك، هي روح الحياة ذاتها.

يحاول الكثيرون تخوين كل مَنْ يفكّر في ترشيح الفريق شفيق، ووصفه بعدم الوطنية وخيانة الثورة، وعلى الجانب الآخر يحاول السيد/ محمد مرسي أنْ يظهر كثوري أصيل ومحارب للفلول، وهي كلمة لا تعني الكثير الآن، إذ فقدتْ أي معنى من فرط الاستخدام غير الواعي أو المنضبط، غير محدد الوجهة أو المعالم، وهذا يقترب بشدة من ذاك العالم العشوائي الذي نعايشه في مصر ليل نهار، ليس من حقِّ أي شخصٍ أنْ يتهم الآخرين بالخيانة؛ لأنهم اختلفوا عنه في الاختيار السياسي، من حقِّ كل مواطن أنْ يسأل كما يشاء، ويفنِّد كل ما يقوله المرشح، ويصف أداءه وفكره السياسي كما يحلو له، لكنْ ليس من المقبول أنْ يحدد شخص أنَّ الوطنية هي أنْ نختار السيد/ حمدين مع شديد التقدير له، فكل مواطنٍ يختار باعثًا وطنيًا، له كل الحقِّ في اختيار مَنْ يشاء، لقد قَبِلَ الناس

بالذهاب إلى صناديق الاقتراع، وعليه فلابد من قبول النتيجة مهما اختلفتْ مع ما نرغب فيه.

لا يستطيع منصف أنْ ينكر تاريخ شفيق الوطني والمهني، ومن الطبيعي والبديهي أنْ تكون للفريق شفيق نجاحات وإخفاقات مثله مثل كل الساعين إلى الإنجاز، ولكل مواطن مصري حرية الاختيار، عليه أنْ يفكّر بنفسه ويقرر ما يشاء، يختار شفيق أم مرسي، وكلٌّ له قناعاته ومبرراته، وإنْ قرر شخص ما حتى الامتناع عن التصويت فهذا حقٌّ أصيل.

لكنَّ القضية الآن هي احترامنا لبعضنا، حين لا نحترم إرادة وفكر الآخرين، ونخوِّن المختلف، فسوف نتأكد أنَّ الثورة تنتهي، فالثورة الحقيقية لم تكن في عزل مبارك، لكنْ كانت في ترسيخ الإيمان بالحُرِّية، حين يطالب الثوريون بالحُرِّية، فعليهم أولًا احترام إرادة الناخب مهما اختلفتْ عن إرادتهم.

لا يحق لـ "مرسي" أنْ يصف نفسه بمرشح الثورة أو مرشح ثوري، ومشاركة السيد/ مرسي في الثورة لا تجعل منه ثوريًا، فمن أهم أدبيات جماعة الإخوان المسلمين السمع والطاعة، وهل يمكن أنْ يخرج ثائر من جماعة تؤمن بتلك الفكرة، أو يرى الشعب المصري رئيسه يأتمر من المرشد، ثم يقبِّل يديه، هذا المرشد القائل بأنَّ منصبه أهم من منصب رئيس الجمهورية، فليتحدث مرسي كما شاء عن خططه وإنجازاته وفكره السياسي، لكنْ من غير المنطقي أو المقبول أنْ يتحدث عمَّا لا يملك: الروح الثورية.

الثورة ليستْ هتافًا هنا وهناك، الثورة فعل يؤدي إلى تغييرٍ إيجابي، ويستلزم معه جهدًا جهيدًا، وتخطيطًا وهدفًا قابلًا للتحقيق، لم يكن د. زويل، وم. هاني عازر، ود. مصطفى السيد، ود. مجدي يعقوب، ود. فاروق الباز في ميدان التحرير، لكنَّ هؤلاء ثوار حقيقيون، لكل شيءٍ تحت السماء وقت، للثورة وقت وللبناء وللتنمية وقت، وعلينا اختيار.. ماذا نحن فاعلون؟.

(١٤)

لا بد من عرضه على طبيبٍ نفسي

حكى لي صديق مصري يعيش بألمانيا مع أسرته عن زيارة من صديقٍ مصري حيث قاما معًا برحلة، واستقل كلٌّ منهما سيارة مختلفة، وقام الصديق الزائر بالقيادة، لكنه أخطأ في الطريق، وكي يقوم بتصحيح الخطأ رجع بسيارته في عكس الاتجاه، وتمَّ إرساله للمحاكمة، فماذا قال القاضي الألماني؟.

" يجب عرضه على طبيبٍ نفسي" هذا ما قاله القاضي الألماني، الذي كان في حالة عدم تصديق من أنْ يقوم شخص بالسير للخلف عكس الاتجاه، وحمدًا لله أنه لم يأتِ إلى مصر، وشاهد كيف نتعامل مع قيادة السيارات، وكيف يغيب المنطق في معظم الممارسات الحياتية الأخرى.

يشارك في الانتخابات ١٣ متسابقًا لمنصب الرئاسة، يتقدم اثنان في السباق، فيقوم صاحبا المركز الثالث والرابع بالمطالبة بمجلس رئاسي يضم الخاسرين.

يحاول التيار الإسلامي التخلُّص من المرشح الرئاسي أحمد شفيق، فيقومون بعمل اختراع هلامي عبثي، يطلقون عليه قانون العزل، وهو يفتقد لأبسط قواعد التشريع القانوني، وهما: التجريد والعمومية، وليس التفصيل والانتقاء.

يحاول أنصار مرسي الدعاية له بالهجوم الضاري على شفيق، فتزداد شعبية شفيق.

يحاكم مبارك وآخرين أمام القضاء، لا يقتنع البعض بالأحكام فيلجأوا للميدان، فهل كلما واجهنا مشكلة أو اختلافًا سياسيًا سوف نلجأ للميدان؟ هل هي تلك الآلية الثورية؟ لابد من وجود آلية محددة لكل الممارسات سواء كانت سياسية أم إدارية، لا أدري وأعتقد أني لن أعرف أبدًا.. لماذا الكثير من أعضاء مجلس الشعب يصيحون ويخطبون، وكأنهم يحثون الشعب على القيام بحربٍ مقدسة ضد كل الأشياء؟ وكأنَّ المناقشات البرلمانية التي من المفترض أنْ تكون رصينة ومنطقية، ما هي سوى خناقة على مقهى، اللُّغة المستخدمة في مجلس الشعب لا تليق أبدًا بمجلسٍ منوط به التشريع.

حين يرفض دكتور مرسي الإجابة على سؤالٍ افتراضي"ماذا ستفعل إذا فاز المرشح الآخر؟" فيصرُّ أنَّ هذا لن يحدث، وهذا مؤشر في منتهى الخطورة، وهو رفض فكرة الهزيمة في حد ذاتها، ففي اللُّعبة السياسية توجد عوامل كثيرة تحدد وجهة الناخب، ولننح المال السياسي والابتزاز الديني جانبًا، لكنْ يظل الناخب المصري حالة خاصة، وله معطيات خاصة به، وسوف تصوِّت شريحة عددية كبيرة فقط وفقًا لضميرها الوطني.

لم يتحدث أحد عن مسئولية عصام شرف عن أحداث ماسبيرو ومحمد محمود، أو مسئولية الجنزوري عن أحداث بورسعيد، لكنَّ شفيق هو المسئول الأوحد عمَّا يسمى إعلاميًا موقعة الجمل.. أين المنطق؟.

أنْ يرفض مجلس الشعب قرض البنك الدولي المخصص للصرف الصحي تجنبًا للربا، نحن أمام كارثة حقيقية.

ومما سبق سوف يتبدى لنا مدى الخلل النفسي، وعدم الاتساق الذي يعاني منه كثير من الساسة في الوقت الراهن، فلن نتقدم خطوة واحدة للأمام حتى يتسق الكثيرون مع ذواتهم، وينسى الكثير منهم الذات المتضخمة التي ترفض الهزيمة بأيَّة حالٍ، فالهزيمة لصباحي وأبي الفتوح يفسروها بتزوير الانتخابات، وإذا فازوا فإنَّ الانتخابات نزيهة.

فهذا التفسير الانتقائي للأحداث لا يدعو بأيَّة حالٍ للتفاؤل، وقد ينتهي بنا الحال كالمواطن المصري، بأنْ يحكم علينا القاضي الألماني بالتالي"يجب العرض على طبيبٍ نفسي".

(١٥)

حلاوة طحينية

ماذا تفعل لو ذهبتَ لشراء ربع كيلو من الجبن الرومي، فتسأل البائع: هل لديك جبن رومي؟.. فيرد عليكَ: عندي حلاوة طحينية!.. فتحتار لفترة، ثم تركّز قليلًا وتفكّر، فتدرك أنَّ هذا ما يترجِّم الوضع السياسي في مصر، تسأل سؤالًا، فتجد إجابةً مختلفةً تمامًا، فقد قام مجلس الشعب المنحل بتكوين اللجنة التأسيسية للدستور، وتمَّ حلها؛ لأنَّ تكوينها غير دستوري إذ يهيمن عليها فصيل سياسي واحد، ومن ثمَّ فإنَّ التيار الإسلامي لن يصبح مجرد طرف في تكوين الدستور بل المتحكّم، وهنا مكمن الخطر، فيعيد التيار الإسلامي نفسه، نفس التكوين السابق الذي يكرِّس فكرة الهيمنة، ويدعي بعد ذلك أنه يريد مشاركة لا مغالبة، قد نجد عذرًا لصاحب محل البقالة أنه يريد بيع الحلاوة الطحينية، فمهما طلبتَ فإنَّ تركيزه التخلُّص من الحلاوة، لكنْ.. ما هو عذر التيار الإسلامي؟.

أنْ تخطئ في عالم السياسة، هذا أمر وارد ومفهوم، أما أنْ تعيد نفس الخطأ بنفس الآلية، فهذا ما يثير الشك والظنون، وتقوم المحكمة الدستورية العليا بحلِّ مجلس الشعب، فيذهب المستشار الخضيري وغيره يطرقون أبواب المجلس، مع أنه يعلم قانونًا أنه لا يستطيع الدخول!.

وينسحب موضوع البقالة على باقي الأطروحات السياسية في الساحة، حيث مازلنا نركّز في الأشخاص، ولا نعبأ كثيرًا بالآليات، فالآلية الصحيحة في الممارسة السياسية، هي ما تقوم بخلق واقع سياسي قوي ورصين، أنْ يصبح الرئيس في سدة الحكم لفترة محددة بأربع سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة، تلك هي الآلية، فمَنْ يأتي سوف يحاول جاهدًا خصوصًا في الفترة الأولى أنْ يثبت مدى الكفاءة حتى يتم انتخابه لفترة ثانية، أما الذهاب للتحرير لتغيير الواقع السياسي، فقد أصبح يزيد الأمور تعقيدًا، ويثير الشكوك حول مدى الفِهم السياسي لذاك الفريق السياسي، إذ أنَّ المبادئ السياسية الأولية ترتبط بالقدرة على التواصل والتفاوض، أما ما يحدث من استغلال الميدان من آنٍ لآخر ما هو إلَّا ابتزاز سياسي، سوف يزيد الأمور اشتعالًا، ويشرح لنا أيضًا مدى القصور السياسي في الوضع الراهن، وعدم قدرة كثير من الفصائل السياسية على بناء الثقة مع الأطراف الأخرى، مما ينذر بأزماتٍ متلاحقة، ومن الواضح أنَّ التيار الديني مع حركة ٦ إبريل يراهنان على ميدان التحرير الذي لا يمكن أنْ يصبح آلية سياسية دائمة، ومن الواضح أيضًا أنَّ استخدام الميدان قد أصبح عبئًا على الحياة اليومية للمواطنين.

وهذا يفسِّر أيضًا نجاح د. مجدي يعقوب، د. زويل، د. مصطفى السيد، م. هاني عازر، د. الباز، وغيرهم، حيث إنهم يعملون في ثقافات وحضارات تؤمن بالفرد وجهده، وتوظِّف الآلية المناسبة للنجاح في الحياة العملية، فتكتشف قدرات الفرد، فيعرف نفسه جيدًا، ومن ثَمَّ لا يرضى بغير النجاح بديلًا.

بيل جيتس لم يُكمِل تعليمه، ولكنه من أهم الشخصيات المؤثرة في العالم، فالنجاح يحتاج رؤية، ليستْ القضية أنْ تعمل بأهم جامعات العالم، أو أهم المؤسسات الكبرى، ولكنْ في مدى التأثير الذي تستطيع القيام به، لم يدرك الإخوان المسلمون، وشركائهم السلفيون بقيادة المتحدث الرسمي "بكار" تلك الفكرة، حين طلُّوا علينا في المجلس الموقر، ففقد المجلس هيبته، وبات صرحًا من خطبٍ عصماء لا تحل ولا تربط، ليستْ القضية هنا أنْ تكون الأكثرية أو الأغلبية بالمجلس أو أي نشاطٍ إنساني آخر، بل أنْ تكون مؤثرًا وفعالًا، وهذا ما لم يحدث، وفي ظني أنه لن يحدث إذا ظل الفكر الاستحواذي مسيطرًا على الإخوان، وظل البقال يعطيكَ حلاوة طحينية حين تسأل عن الجبن الرومي.

(١٦)

فرسان هذا العصر

"لسه الأغاني ممكنة"...

هكذا غنَّى منير، من كلمات كوثر مصطفى في أحد أجمل أفلام شاهين "المصير" وهكذا نحتاج أن نغني في كل أوانٍ وزمانٍ، "أعطني الناي وغني، فالغنى سر الوجود" غنتْ فيروز، من كلمات جبران خليل جبران، وقديمًا قال شكسبير: "لا تثق في أحدٍ لا يستمع إلى الموسيقى" فالموسيقى هي جوهر الحياة، وهي الدافع النفسي لمواجهة تلك الهجمة الشرسة من الكآبة التي تحيط بنا من كل جانب، وإطلالة السياسة والساسة علينا من كل وجهة وطريق، فأصبحنا محاصرين مقيدين في عدة دروب وكأنه لا فِكاك، ويكاد يصرخ المواطن العادي مستغيثًا "كفاية سياسة كفاية كلام" والشعوب التي تغني، هي شعوب قادرة على الحياة والمقاومة، هي شعوب قادرة أنْ تحوِّل مشاكلها وأحزانها وقضاياها إلى فنٍ جميل، وهذا هو الإبداع، والشعوب المبدعة لا تهزم أبدًا، والمصريين يجري في دمائهم الفن، فنحن لدينا أقدم صناعة سينمائية في العالم العربي وأفريقيا، فثقافة الإبداع جزء راسخ في شرايين المصريين.

الفن يطلق الروح نحو آفاقٍ قادرة على تطهير الذات من الحقد والكراهية، إنني شديد الثقة أنَّ حجم التطرف الديني في أي مكانٍ

بالعالم يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمدى الجهل من ناحيةٍ, وأيضًا بمدى انحسار الفنون من ناحية أخرى، لم نعرف في تاريخ التطرف الديني في مصر حتى الآن متطرفًا دينيًا، كان يعزف على البيانو، أو يذهب للسينما، أو كان محبًا للفنون، فتلك الخصومة شديدة الوضوح بين التطرف والفن، لابد وأنْ تجعل الحكومة الجديدة الفن من أهم أولوياتها، فإما أنْ تهتم الحكومة الجديدة والرئيس الجديد بالفنون، وإلَّا شككنا في وجود خصومة ما بينهما وبين الفنون، ولو اهتمتْ الحكومة المصرية الجديدة بالفنون داخل المدارس بطريقة جدية، وأصبحتْ جزءًا من التكوين النفسي في بناء الشخصية المصرية، فسوف تزداد احتمالات أنْ نصبح جزءًا من العالم المتحضر، وسوف يوضح لنا ذلك ماهية أولويات الحكومة الجديدة، والتوجهات العامة لديها، وما هو دور الفنون في بداية عهد الرئيس المنتخب محمد مرسي.

في جلسة مع بعض الأصدقاء، حكى لي شخص على معرفة بالفنانة الراحلة أمينة رزق أنها في أيامها الأخيرة، قد كانت في شدة الضعف والمرض لكنها كانت تتحول لشخصٍ آخر عندما تدخل الاستوديو، وتمثِّل، فتصبح في حالة توهج، وتبدو أكثر قوة ونشاطًا، وإنْ دل ذلك على شيءٍ ما، فإنه يثبت مدى تعمق الفن في حياة الفنان الحقيقي، وقيمة الفنان الكبير تتعمق أيضًا في قلب مجتمعه، فالفن مستوطن في جذور المصريين.

الفنان الحقيقي فارس يبحث عن الحُرِّية الحقيقية، الفنان الحقيقي محرابه الفن، ويسترد روحه فقط حين يبدع، والمجتمع الصحيح

نفسيًا يشجِّع الفنون، كافة الفنون، الفن باقٍ ما حيينا مؤثرًا ومعلِّمًا، فهل لدينا اليوم فارس، أم سنردد مع "نجيب سرور" "فرسان هذا العصر هم بعض اللصوص".

(١٧)

العم جُحا

من أجمل الروايات التي سمعناها صغارًا قصة جحا، حين ركب حماره بينما سار ابنه على رجليه، فقال الناس: هذا أب غير رحيم.. كيف يترك صغيره يسير في شدة الحر؟

ومن ثَمَّ قام جحا بالسير، وركب ابنه الحمار، فما كان من الناس إلَّا أنْ قالوا: طفل عديم الأخلاق.. كيف يترك أباه كبير السن يسير ويركب هو الحمار؟!

وعليه فقد قام جحا وابنه يسيرا معًا، ويجرا الحمار فما كان من الناس عندئذ سوى نعتهم بالغباء؛ لأنهما لا يستخدما الحمار، وحينئذ فقد جحا أعصابه، وقام هو وابنه بحمل الحمار، فصاح الناس: هؤلاء الناس مجانين.

وتلك القصة تذكرنا بالمأزق السياسي المصري للرئيس الجديد مرسي، فحتى الآن لم تتضح، وربما لن تتضح لنا معالم واضحة لاتجاهات الرئيس الحالي، فهو محاصر وغير محاصر، حر طليق ومقيد أسير، وهو يحدِّث نفسه، ويقول: قد يغضب إخواني الإخوان أو أولاد العمومة السلفيين، ولماذا أُزعج الأقباط، وقد يضطرب الليبراليين، وقد يهاجمني اليسار، ولابد أنْ يكون المجلس العسكري معي على وفاق.

وتلك هي المشكلة، تلك هي الكارثة، لم ندرك حتى الآن الاتجاهات، المسار الفكري، الرؤية.

محاولة إرضاء أو ترضية بعض الأطراف ما هي إلَّا امتداد للفكر التلفيقي غير المستقل، لسنا في حاجة إلى مزيدٍ من التربيطات والموائمات، ما نحتاجه في هذه اللحظة الآنية هو بناء دولة.

في أول لقاءٍ لرئيس الوزراء نوبار مع محمد علي باشا، قال له: اعمل حتى أراك تعمل.
فهل نرى الساسة في مصر تعمل ولا تتكلَّم بعد اليوم؟.. أشك.

يقول بسمارك المستشار الألماني: (جوهر الأشياء هو عمل التاريخ، وليس كتابته)... وما نقوم به دومًا هو الكتابة، وليس صناعة الأحداث والتاريخ، وكثيرًا من الكذب أو إخفاء التاريخ وتشويهه، فبأي منطقٍ يقوم عبد الناصر في عام ١٩٦٦م بنقل تمثال نوبار باشا من حديقة الشلالات إلى ممر في متحفٍ صغير، ثم يوجد الآن بمسرح سيد درويش، قد نختلف أو نتفق مع نوبار باشا، لكنْ لا نستطيع أبدًا محو تاريخه، وقد قام نظام ناصر أيضًا بإلصاق كل التُّهم الشنعاء، وغير الشنعاء بالعائلة المالكة، وقد يكون بعض ما ذُكِرَ صحيح إلَّا أنه محا كل ما هو إيجابي، وبنفس المنطق أيضًا يحاول الجميع طمس كل ما قام به مبارك، وقد قام مبارك نفسه باستخدام نفس المنهج في أواخر حكمه، بمحاولة تضخيم دوره في حرب ١٩٧٣م إلى درجة، قد يبدو فيها دور مبارك وكأنه يلتهم وينحي بقية الأدوار بدءًا من دور الزعيم الراحل أنور السادات إلى أدوار كل مَنْ ساهم في هذا النصر العظيم، ثم تجد بعض

الناصريين يهمشون من أهمية حرب ١٩٧٣م، ويصفون معاهدة السلام بالخيانة، وكل محاولة لطمس التاريخ ما هي إلَّا منهج فاشي ديكتاتوري، يمحي الآخر من التاريخ معتقدًا أنه بذلك يصنع تاريخًا، والحقيقة إنَّ صناعة التاريخ تتعلق فقط بالإنجازات،وليس بالكلمات.

و السؤال الآن:

كيف نصنع التاريخ الحالي وسط كل هذا الصراع؟ إذ أنَّ الصراع لا يؤدي في النهاية إلَّا إلى تفتيت القوة، وزعزعة استقرار وطن بات مهددًا بشخصنة الأمور، وتعزيز غريزة انتقام الفصائل السياسية المتناحرة.

سؤال إلى العم جحا: هو انتي بتشتغلي إيه؟...

الله يرحم الست ماري منيب.

(١٨)

أضخم كتاب في الأرض

علم اللوع أضخم كتاب في الأرض

بس اللي يغلط فيه يجيبه الأرض

هذا ما قاله صلاح جاهين في واحدة من أشهر رباعياته، وربما كان يحذر كثيرًا من السياسيين في كل العصور، إذ أنَّ اللوع والمراوغة والالتفاف على الحقائق يعدون الأساليب الأكثر حضورًا في عالم السياسة اليوم وأمس وغدًا.

يصدر السيد رئيس الجمهورية/ محمد مرسي قرارًا يسحب به قرار حل مجلس الشعب الصادر عن المحكمة الدستورية، هذا موقف سياسي، يختلف الكثير معه ويتفق معه آخرون، ولكنْ حين يخرج علينا المتحدث الرسمي للرئيس، ويقول: إنَّ قرار السيد الرئيس بعودة المجلس ما هو إلَّا تطبيق لقرار المحكمة الدستورية... فتجد عقلكَ غير قادرٍ على التصديق، وفيما يبدو أنَّ السيد الرئيس ليس من محبي صلاح جاهين، ويبدو أنَّ مستوى اللوع لم يرقَ بعد إلى الحد الذي يستطيع به أنْ يقنعنا، ثم يوافق الرئيس على قرار المحكمة الدستورية التالي لقراره بسحب الثقة، وكأنه كان يملك الرفض.

يتحدث أردوغان عن حقوق الشعب السوري في الحُرِّية، ونسي أنَّ الأكراد في تركيا لا يعاملون كمواطنين من الدرجة الأولى، فهل ركز قليلًا فيما يحدث للأكراد؟.

يرفض أردوغان أنْ تعتبر فرنسا ما قام به الأتراك تجاه الأرمن في عام ١٩١٥م مذبحة، ويتحدث عن المذابح التي يقوم بها نظام بشار!.

رحب الإخوان بأردوغان حين جاء لمصر، لكنْ حين صرح بأنَّ تركيا دولة علمانية، باتتْ مشاعرهم تجاه أردوغان باهتة، وكأنهم يلومون أردوغان على اتساقه مع سياسة تركيا.

يقسم السيد الرئيس على احترام الدستور والقانون، وهذا شيء عظيم، ولكنه يقسم ثلاث مرات، فهل مرة واحدة ليستْ كافية؟!.

يصرح السيد/ الكتاتني، للإعلامي/ خيري رمضان: "المجلس راجع"، هذا وإنْ دل على شيءٍ إنما يدل على أنَّ العائلة الإخوانية دائمة الانعقاد، ولم ينسلخ عنها السيد الرئيس بعد!

يصرح الإخوان المسلمون مرارًا وتكرارًا نريد مشاركة لا مغالبة، وفي كل موقف يمثِّل العمل الجماعي تصبح الهيمنة سيِّدة الموقف، واللجنة التأسيسية للدستور الثانية تشبه الأولى إنْ لم تكن أكثر سوءًا.

يتحدث الإخوان عن ترحيبهم بالدولة المدنية، وينقلبون على ذلك ويصممون أنْ تخرج وثيقة الأزهر بتعبير ديمقراطية حديثة، وكأنَّ كلمة مدنية كلمة مسيئة يعاقب عليها القانون.

يطالب الإخوان بعدد من الوزارات مع أنَّ مجلس الشعب يعد باطلًا، ومن ثمَّ فالنتائج المترتبة عليه باطلة، ومن ثمَّ لا يمتلك الإخوان الأكثرية التي كانوا يتحاكون بها ليل نهار، ففي هذه اللحظة الآنية لابد وأنْ يطالب الجميع بحكومة تكنوقراط، كفانا صراعًا وتقسيمًا للغنائم، وإلَّا سوف تكون العاقبة هي اختفاء الغنيمة، وبقائنا نحن نقاتل بعضنا البعض على فتاتٍ نكاد لا نراه، لا نعرف.. متى سوف يدرك الساسة بمصر أنَّ للعمل وقت؟ فدائمًا العمل يسبق تقسيم الغنائم، وأنتَ لا تستطيع مهما كنتَ تعتقد أنكَ سوبر مان أنْ تحصد دون أنْ تزرع، والخوف كل الخوف أنْ ينطبق علينا ما قاله جبران خليل: "الويل لأمة تلبس مما لا تنسج، وتأكل مما لا تزرع، وتشرب مما لا تعصر".

ففي ما يقرب من العام ونصف العام، لم ننجز سوى بضعة وعود وعدة كلمات، ولم يخرج إنجاز يحسب لأي فريقٍ سياسي إلى النور بعد، فهل كففنا عن تقسيم الغنائم، ونظرنا للمستقبل؟ حيث يتسابق العالم نحو الإبداع والإنتاج، أما نحن فنسير خلفًا.

لكنَّ الشيء الواضح للعيان أنَّ كتاب علم اللوع هو الأكثر مبيعًا اليوم وكل يوم، فهل تخلصنا من دار النشر التي تعيد طباعته كلما فرغ من الأسواق؟!.

(١٩)

السياسي المحترف

الرَّسَّام الهولندي الكبير "رمبراندت" كان يعشق الفن عشقًا فريدًا، وكان يصرف ما يكسبه من الفن على الفن، وحين تقدَّم به العمر، ولم يمتلك المال الكافي لشراء الأدوية والغذاء، قام تلاميذه بمساعدته ماليًا، فلم يستخدم المال في شراء الأدوية، وإنما في شراء الألوان؛ ليستمر في الرسم، وهذا العشق لما يعمل، هو ما يجعلكَ تفكّر فيما يحدث في المشهد السياسي المصري الحالي، وتقارنه بالماضي القريب والبعيد، والقارئ للتاريخ المصري بإمعانٍ يدرك مَنْ هو السياسي المحترف، ومَنْ المتداخل في أمرٍ لا دراية له به، وقبل كل هذا يدرك الفرق بين ما هو ديني وما هو سياسي، يعرف عن ماذا يتكلَّم؟ وما مدى معرفته وإلمامه به؟ ويسأل حين لا يعرف، ويقرأ كثيرًا حتى يعرف.

السياسي المحترف هو مَنْ يدرك أبعاد المشهد السياسي، أبعاد القوة ونقاط الضعف، ويدرك تمامًا مَنْ هو في ذلك المشهد، ما يستطيع أنْ يسهم به، وما لا يستطيع القيام به، ولو كنتُ في مكان الرئيس الحالي لفكرتُ بطريقة سياسية احترافية في اختيار الحكومة، فهل سيفعل ذلك السيد الرئيس؟.. أشك!.

فالرئيس الحالي أبعد ما يكون عن الفكر الاحترافي، وأقرب ما يكون للتلفيقية والتقية كآلياتٍ للعمل السياسي، وحقيقة الأمر أنَّ هذه الطريقة لن تكوِّن أي مدرسة سياسية جديدة، ولن تؤسس لأي منهجٍ سياسي قد يذكر في التاريخ السياسي المصري.

يتبرع السيد الرئيس بإرجاع الصحفية شيماء عادل، مع أنَّ الأمر من البساطة مما كان أنْ تقوم به الخارجية المصرية.

حين يصدر الرئيس الحالي قرارًا بالإفراج عن المتظاهرين أمام السفارة السورية الذين حاولوا اقتحامها، كيف نفسر هذا القرار؟.

الرئيس يدعم الثورة السورية؛ لأنها بالأساس إخوانية، ولماذا لا يدعم هؤلاء "الثوار" المتظاهرين الشيعة في البحرين؟ أو يتظاهرون أمام السفارة السودانية؟.

السياسي يأخذ قراراتٍ سياسية، أما المقحمون في السياسة فيأخذون القرارات إما وفقًا للهوى، أو الانتماء الديني، أو أشياء أخرى.

وما شاهدناه في مجلس الشعب المنحل خير دليلٍ على مدى قصر النظر وانعدام الرؤية، فكثير من هؤلاء لم يدروا ما كانوا يفعلون، ولن يدركوا مهما طال الزمن.. ماذا هم فاعلون؟.

الاحتراف يبدأ بالعشق، ومَنْ يعشق يبذل جهدًا كبيرًا حتى يتحقق له ما يريد، والسياسي المحترف عاشق بدرجة امتياز، والعشق هنا هو الجهد في المجال، حين يجتهد العشاق لا يعبأون بالجهد أو الوقت، ويكون الهدف الأول والأخير هو السعي نحو الامتياز، ولم نرَ حتى الآن أي سعي نحو أي شيءٍ، فمعظم السياسيين الحاليين يستحوذ

عليهم فكرة الهيمنة، وانتصار الفريق المنتمون إليه، فالإخوان يناصرون الرئيس مهما قال، والإخوان مجموعة سياسية متلاحمة تحاول جاهدة الهيمنة، وبأي حق ومنطق يقف شباب الإخوان يوم إصدار الحكم على اللجنة التأسيسية للدستور، وقرار حل مجلس الشعب محاولين اقتحام المحكمة، ويتهم محامي الإخوان قضاة المحكمة الدستورية بالتزوير، أليس ذلك أحد أشكال البلطجة السياسية، التي تتماشى مع ما يقوم به الإخوان الآن؟.

في عصر محمد علي قتل شاب مسلّم شابًا مسيحيًا، وألقى بجثته في الماء، وتمَّ اكتشاف الجريمة، وحُكِمَ على الشاب المسلّم بالإعدام، وحين سيق الشاب لإعدامه هاجتْ وماجتْ بعض الجماهير، وهددوا بقتل مسيحيين آخرين، فما كان من طاهر بك رئيس البوليس إلَّا أنْ أبلغهم بأنَّ الوالي أمر بقتل مَنْ يبدي أدنى ملاحظة، فانصرفتْ الجموع واختفتْ.

وهنا سيادة القانون واضحة، فالرئيس يحكم بالعدل، وليس وفقًا للهوى والميل الديني، وتلك هي رسالة بسيطة من الوالي محمد علي إلى الرئيس مرسي، فهل يستمع؟.. أشك كثيرًا.

(٢٠)

مَنْ يكتب التاريخ؟

في فيلم "سوبر ماركت" لـ"محمد خان"، يبلور لنا وجهة نظر قاسية في الحياة، وهي أنَّ كل شيءٍ قابل للبيع بما في ذلك البشر، والمتأمل للمشهد السياسي العالمي لابد وأنْ يرى مدى تطابق المنطق ذاته في المشهد السياسي.

حين نرجع بالتاريخ قليلًا، نجد د. زكي نجيب محمود يعلّق على دور الأمم المتحدة في اتخاذ القرارات، وحل المشاكل بقوله: "حين تكون للدول الكبرى إرادة ما تذهب بها إلى اجتماعات الأمم المتحدة، وتكون المهارة السياسية في صياغة لغوية مقبولة شكلًا لدى الأطراف المتصارعة، أما مسألة حل النزاع فهي أمر غير وارد، وليس في الحسبان".

والمتأمل لما حدث في ميدان بكين السماوي في ١٩٨٩م من دهس للطلبة والعمال الصينيين على يد الحكومة الصينية، وعدم قدرة أي قوى على أنْ تتدخل بأكثر من التنديد والشجب بما في ذلك القوى العظمى، يدرك ببساطة مبدأ سياسيًا واقعيًا، وهو متعلق بالأساس بمدى القوة السياسية المستمدة أساسًا من القوة العلمية، والعسكرية، والاقتصادية في تلك الدول، ولأدرك أيضًا مدى الكارثة القائمة في كثيرٍ من دول الخطابة العربية، التي يسهل بها الحديث الدائم عن

العدل والحُرِّية والسلام العالمي، وهي دول أبعد ما تكون عن ذلك في أرض الواقع.

القرار السياسي المستقل لا يرتبط بمدى الوعي بفكرة الاستقلال أو وجود تلك الفكرة، فهذا أسهل ما في الموقف السياسي، ولكنَّ وجود خطة استراتيجية واضحة مع وجود آليات تنفيذ لتلك الخطة ذلك هو المحك الحقيقي، الدول غير المتقدمة علميًا وبالتالي اقتصاديًا، ومن ثَمَّ عسكريًا، لن تستطيع أنْ تفرض ما تريد حتى وإنْ كان حقًا، فلم تستطع مصر أنْ توقِّع معاهدة السلام مع إسرائيل إلَّا بعد انتصار أكتوبر١٩٧٣م، ليس لأنَّ لديها الحق في سيناء، فذلك آخر ما يهتم به العالم.

فنحن نغض الطرف عمَّا حدث في دارفور من نظام البشير، وعدم التعليق على مظاهرات الطلبة السودانيين ضد سياسات الحكومة التقشفية، ولا يتظاهر أحد لمساندة تلك المظاهرات.

وتتعامل كثير من الحكومات في العالم مع قضية مظاهرات البحرين وكأنها لا توجد، وتحاول كثير من دول العالم حسم خلافاتها على أرض سوريا، فمن السذاجة بمكان أنْ نترجم الموقف في سوريا على أنه فقط انتفاضة شعبية، فهو صراع إرادات ومصالح دولية يتم في سوريا حتى تتجنب تلك الأطراف المواجهة المباشرة، وللأسف يموت الكثير لأسبابٍ معتقدين أنهم يعرفونها.

لو فكرنا للحظات لأدركنا بسهولة، كيف تتعامل القوى الكبرى مع كل قضية على حده بما يتناسب مع المصلحة الوطنية، لنتأمل قليلًا

الموقف من مظاهرات ليبيا، وما يحدث في سوريا والبحرين، وقد نرفض المواقف الدولية جملةً وتفصيلًا، ونعتبرها مزدوجة المعايير، وهذا خطاب إعلامي يتسم إلى حدٍ كبير بعدم الدقة، إذ أنَّ التفسير السياسي لمواقف الدول الكبرى يتفق مع الحتمية التاريخية، ومن ثَمَّ علينا أنْ نتعامل بنفس المنطق، وحيث إننا عبر التاريخ لا نجد سوى إرادة المنتصر، فلابد أنْ يكون التفكير السياسي متسقًا مع الواقع، فليس من المنطق بمكان أنْ نتحدث عن الإخوة العربية، حيث إنَّ هذا كلام يبتعد كثيرًا عن المنطق السياسي، والأجدى أنْ يكون الحديث عن المصالح المشتركة، والمعضلة الكبرى في العالم العربي اليوم، هي الخلط والارتباك السياسي الذي سوف يؤدي حتمًا إلى مزيدٍ من الضعف.

ولو تأملنا قليلًا سوف نجد غياب إرادات جماعية بالعالم العربي الذي يبدو فقط مستقلًا، لكنْ.. هل هو كذلك؟!.

(٢١)

لم نحرز أهدافًا بعد

"ليس الأقوى أو الأذكى هو القادر على البقاء، بل الأكثر تكيُّفًا مع التغيير"... هذا ما قاله داروين منذ زمنٍ بعيد، والعالم يتغير حولنا بسرعة غير معتادة، ومازلنا نستخدم كثيرًا من الأفكار القديمة التي لا تتناسب مع الزمن الحالي، أو أي زمنٍ مستقبلي.

تكلَّفتْ الرحلة الأخيرة للمريخ حوالي المليارين ونصف المليار دولار في رحلة استُخدم فيها جهاز بحجم السيارة الصغيرة، وذلك لتحليل عينات الصخور، واستكشاف ما إذا كانت توجد أيَّة علامات للحياة على سطح المريخ في أي وقتٍ مضى، وسوف يستغرق التحليل هذا مدة عامين، وبنظرة متأنية على كيفية التعامل الجاد مع العلم، ومدى أهميته الحقيقية في الحضارات التي أنجزتْ، ومازالتْ تنتج الكثير، سوف نعرف مدى قصور الرؤية، واحتمالات انعدامها في القريب العاجل.

التفاني في العمل وبذل الجهد، هما السمتان الأساسيتان للمبدعين والقادرين على تغيير العالم، ونظرة عن قرب للمشهد المصري، سوف نرى بوضوح صراعًا سياسيًا عقيمًا، وسبب العقم معلوم يقينًا، الكل ضد الكل، الكل يعمل لصالح فريقه، ولم يتكون الفريق

القومي بعد، ينبغي أنْ يتكون الفريق القومي من أفضل لاعبي الوطن، ولا يتكون من أصحاب وأقارب العريس.

الفريق الأول يرأسه الرئيس الحالي، ومعه فريق يدافع عنه طوال الوقت، يبرر ويشرح ويهاجم ويدافع، ومع ذلك لا يحرز أيَّة أهدافٍ لصالح مصر، فكل الأهداف لصالح الإخوان، فالرئيس دائمًا على حق، وحين ينتقده رئيس تحرير الدستور، فقد أصبح ذلك إهانة للرئيس، ويقوم محامٍ من الإخوان بترهيب رئيس التحرير، ويتم حبسه احتياطيًا، ثم يتدخل الرئيس، ويقوم بدور المشرِّع والبطل في آنٍ واحد، فيمنع الحبس الاحتياطي في قضايا النشر، ويخرج الصحفي وقد وعى الدرس، فقد كانت مجرد تذكِّرة، لكنه مشهد تقليدي قديم، قد عفا عليه الزمن، ولم يعد الكثير يعوِّل عليه، فقد وعى الجميع الرسالة، نستطيع تغيير الواقع بأيدينا.

الفريق الثاني يرأسه أعداء الرئيس، وهو ضد الإخوان قلبًا وقالبًا، وضد الرئيس مهما فعل، ويقوم بفحص وتمحيص كل ما يقوم به الرئيس، ويحرز أهدافًا في الإخوان، ويظل رصيد مصر صفرًا.

وفريق حائر بين الاثنين، لا يعرف.. ماذا يفعل؟ فبعض ما يقال هنا منطقي، والبعض الآخر لا علاقة له بالفِهم أو المنطق، فتارةً يقول: "الرئيس على حق" ثم يرى تناقضات الرئيس فينصرف عنه، ثم يضايقه مبالغات أعداء الرئيس، فيقرر أنْ يشاهد سهرة التليفزيون ـ وكفى المؤمنين شر القتال ـ لكنه يستيقظ كل يومٍ، وهو أشد حيرة من اليوم السابق، ومازال لا يعرف إنْ كان مع الرئيس أم ضد الرئيس.

وثمَّة فريق آخر، وهو ينتمي لقبيلة "إياكش تولع" فهو غير منتمٍ لأي فصيلٍ، ويتمنى فقط أنْ تهدأ الأمور، وتعود لما كانت عليه قبل الثورة "وبلاش وجع دماغ".

وفريق آخر على وعي بالقضية، ويرى أنَّ مصلحة مصر في عدم الشخصنة، والسعي الدائم الحثيث تجاه الأفضل عن طريق الأخذ بأسباب التقدُّم التي وعاها قبلنا الكثيرون، ويعرف أنَّ العلم والحريات هما البابان الوحيدان نحو التقدُّم، فهل نستمع له أم سيظل دومًا صوت الخناقة بين أنصار الرئيس وأعدائه هو الأعلى؟.

والسؤال الآن: هل يعي السيد الرئيس الموقف، فيعتمد على أفضل اللاعبين في المشهد المصري، أم يظل متمسكًا بالفريق الأقرب إلى القلب؟

(٢٢)

فكر الغنائم

يقول ستيفان شيجال: "إنْ آجلًا أم عاجلًا سوف ينسى الرجل ذو الوجهين أيهما وجهه الحقيقي".
لكنَّ الكارثة الكبرى هي ألَّا يدرك الشعب ما هو الوجه الحقيقي لرأس الدولة، فالدولة المصرية إبان عهد الرئيس السابق تحدثتْ عن الديمقراطية وسط انتخاباتٍ مزورة، وتعليمٍ رديء، ومستوى متدنٍ للخدمات الصحية، وانتشار الرشوة، ثم جاءتْ وعود الرئيس الحالي بإقامة نهضة! وما نراه اليوم لا يبشر بأي نهضة.

ونتأمل بدقة فكرة النهضة، نجد أنها بالأساس مرتبطة بفكرة النهوض من حالة السُّبات أو السكون، ونجد أنَّ مشروع النهضة المزعوم ليس له معالم واضحة، فما هو إلَّا بعض الجمل الإنشائية التي تصلح فقط لموضوع تعبير في فصل لمدرسة ابتدائية لمعلِّم لغة عربية ضعيف المستوى.

وحين قامتْ النهضة في أوروبا، قامتْ على أسس التفكير العلمي، وكانت نهضة في كل مناحي الحياة فيما يتصل بالعلم والمعرفة والفنون، والتفكير العلمي يعتمد على المنطق والمعرفة والبحث العلمي كأسسٍ للتقدُّم، وما نراه اليوم في الواقع المصري الحالي، وما يسمى مشروع النهضة ما هو إلَّا وهمٌّ مؤسس على الفكر

الخطابي والحملات الشعبية، فالقمامة في العالم كله ليستْ مسئولية الشعب، وتلك هي حلول لا ترقى إلى مستوى الدولة، قد يقوم بذلك شيخ حارة أو مسئول في حي، وإنما الدول التي تؤسس على فكرٍ استراتيجي، يوجد شيء يسمى إدارة النفايات والقمامة، ويستفيد العالم من القمامة في عملية إعادة التدوير، وهي صناعة كبيرة، وتدر البلايين على الحكومات، ولو سافرتَ لأقرب دولة أوروبية، لوجدتَ مقالب القمامة التي في الشارع مقسمة إلى مقالب مخصصة للمعادن، وأخرى لبقايا الطعام، ومن ثَمَّ يسهل تصنيفها والاستفادة منها، لكنَّ المأساة في مصر أننا نحاول دائمًا إيجاد حلول آنية لا تؤتي ثمارها، وهي حلول هشة لن تفيد أو تنفع، هي حلول تبدو جميلة لكنها تفتقر إلى المنطق والتأثير الدائم.

النهضة أساسًا تنطلق من مسلَّمات غير متوفرة في ظل المناخ الحالي، في ظل المناخ الدهشوري، فأزمة دهشور أزمة ثقافية، فثقافة القبيلة تتحكم في تصرفاتنا، فوجود مشكلة بين أي فردين أمر حتمي، وعدم القدرة على التواصل أمر واضح داخل الثقافة المصرية، أما أنْ تتحول تلك الخناقة إلى خناقة بين المسيحيين والمسلمين، فلابد أنَّ لدينا خللًا واضحًا في فِهمنا للأمور، هذا الخلل الثقافي، هذا الفكر القبلي، هو ما يجب اقتلاعه من الجذور، فكرة أنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب، تهدم فكرة العدالة وسيادة القانون، وهذا فكر متغلغل في جذور مجتمعٍ يعانى من شيزوفرينيا متأصلة ومتجذرة، ولا أظن أننا سوف نستطيع فعل

أي شيء في ظل مناخٍ سياسي، يؤسس لفكر يبعث على اقتسام الغنائم، وليس بناء الوطن.

كيف يُقتلع من الجذور؟ فكرة المواطنة هي الملجأ الوحيد، وتترسخ فكرة المواطنة في العقل والقلب حين يصبح كل المواطنين سواء، ونظرة بسيطة كيف يؤمن عليكَ صحيًا في بلدٍ مثل فرنسا، فكل المواطنين يستمتعون بنفس نظام التأمين الصحي مهما اختلف الدخل، توجد أزمة مواطنة حقيقية في مصر على مستوى المسيحي والمسلّم والبهائي، وعلى مستوى الغني والفقير والمعدم، مستوى التعليم المتدني في المدارس والجامعات المصرية مقارنةً بالمدارس والجامعات الخاصة.. ألم تحن الساعة حتى يستمتع جميع المواطنين بنفس المزايا والحقوق؟! سؤال لن نستطيع الإجابة عنه.

(٢٣)

بس مركِّب ذقن!

أنْ تترك بصمة في تلك الحياة، هذا هو التحدي الحقيقي، وأنْ تترك بصمة كسياسي، يبدو وكأنه تحدي أكثر صعوبة.

التاريخ العالمي والمصري به الكثير من الأسماء، التي لن تنمحي مهما حاول البعض طمسها أو حتى محوها، لذا نجد أنَّ أصحاب التفكير النقدي يستطيعون تغيير مجرى التاريخ، والتفكير النقدي يصاحب فكرة الإبداع في كافة المراحل من القدرة على الملاحظة إلى النقد والتحليل، ومن ثمَّ التغيير.

يعتمد التفكير النقدي بالأساس على القدرة على فِهم الواقع، والوعي بمعطياته، ومن ثمَّ القدرة على نقده مستندًا على الحُرِّية المطلقة كعمودٍ أساسي للمجتمع الحديث، والحُرِّية في التفكير هي المقوِّم الأساسي لعمل التغيير المنشود.

وفي محاولة لفِهم ما يدور حولكَ في الواقع المصري الحالي، فلن تجد أيَّة معطيات تساند التفكير أساسًا، فالقرارات المتوالية لا توحي بوجود إطار فكري واضح نستند إليه، فنستطيع التنبؤ بالسياسات القادمة.

عصر النهضة في أوروبا، بدأ حين تقدمتْ العلوم والفنون، ثم تلى ذلك التغيير السياسي، أما في مصر فالوضع معكوس تمامًا، فما تلى

أحداث ٢٥يناير، وتغيير النظام السابق حدث قبل أي تقدُّمٍ في العلوم والفنون والتعليم والثقافة، وهذه هي الكارثة السياسية التي أظهرتْ فصائل الإسلام السياسي المفلسة فكريًا، فكل ما يقدِّمه لنا المنتمون للإسلام السياسي لا يقدِّم ولا يؤخر، ولا يعد كونه أكثر من خطبٍ عصماء في الفكر الديني، لا تنتمي للفكر السياسي من قريبٍ أو بعيد.

المنحى الأخلاقي الذي يتبناه هذا التيار، لن يصل بنا إلى شيءٍ سوى مزيدٍ من الخطب عن غياب الضمير، وضرورة العودة للأخلاق، ومن ثَمَّ سوف يتغير كل شيءٍ، ونصبح في أفضل حال، وهذا غير منطقي.

وخطورة ذلك الفكر على المجتمع المصري كارثية؛ لأنه ببساطة يبتعد عن أهم مبادئ التفكير النقدي، وهي المكاشفة، وفِهم الواقع كما هو، ورد كل مشكلة إلى أسبابها الواقعية، ومن ثَمَّ نستطيع أنْ نرى مشاكلنا بوضوح دون وجود إجابات جاهزة، مثل: الأخلاق هي الحل، وحين نرى المشاكل بوضوح، سوف نستطيع استخدام المنهج النقدي، وتحليل المشاكل إلى مكوناتها الأولية حتى نستطيع إيجاد حل عملي لها.

المثال الواضح الجلي، هو حال التعليم المصري، الحديث القائم عنه هو دائمًا وأبدًا حديث عبثي بدرجة امتياز، المشكلة ليستْ الدروس الخصوصية أو أجر المعلِّم، تلك مجرد نتائج لطريقة تفكير عقيمة.

التعليم صنع نهضة كوريا الجنوبية، ولن يصنع نهضتنا تلك الخطب الجوفاء عن قدسية رسالة المعلِّم.

نحتاج أولًا أنْ ندرك أنَّ التعليم أحد أركان النهضة، ومكوناته واضحة لأصحاب التفكير النقدي، لابد من البنية التحتية لأي مشروع تعليمي، وهذا يتمثل في مباني المدرسة، الفصل الدراسي المجهز تكنولوجيًا، الملاعب، حجرة الموسيقى والرسم ومعمل العلوم الحديث، مع وجود مناهج حديثة عملية مرتبطة بالواقع وسوق العمل، ومدرسين مؤهلين لديهم رواتب كافية ومحفِّزة.

التدريس مهنة تحتاج إلى معرفة ومهارات وقدرة على التواصل، وبالتالي لن يستطيع القيام بها أفراد ممزقة أوصالهم، تهدر طاقتهم في الدروس الخصوصية.

أهم ما يميز التفكير النقدي هو الواقعية في الطرح، والبعد عن الخطابة، إذ أنها الطريقة الأمثل لحل المشاكل الآنية والمستقبلية.. فهل يتعامل الرئيس وشركاه مع الملفات المصرية المصيرية بواقعية؟ أم سنظل نخاطب أنفسنا، نتكلَّم كثيرًا ونعمل قليلًا، نقول ما لا نفعل، ونفعل ما لا نقول، لو فقط تابعتَ اختراع الرئاسة المسمى ديوان المظالم، وحاولتَ التوصل لحل مشكلة ما عن طريقه، سوف تدرك يقينًا أنَّ مَنْ في الحكم الآن هو مبارك بس مركَّب دقن.

(٢٤)

السياسي المبدع

يشهد التاريخ عبر العصورعلى كثيرٍ من السياسيين، البعض منهم مُلهم، والبعض الآخر مبدع، ويبقى لدينا كثير من المفلسين والمفسدين، ومازال العالم الثالث يعاني على مر العصور من فشل القيادة، وهروب المواهب إلى حيث تنمو وتبدع في عالمٍ لا يعرف للخطابة والفهلوة مكانًا، في عالمٍ يعمل كثيرًا، يتكلَّم قليلًا، فتكون النتيجة بناءً لدولة تنجح، وتكون في حالة سعي دائم للنجاح.

السياسي المبدع ليس بالضرورة خطيبًا مفوَّهًا، أو متحدثًا بارعًا، لكنه بالأساس يمتلك معرفةً، ووعيًا بالواقع، وقدرة ورؤية مستقبلية.

السياسي المبدع هو رجل واقعي، يعي الواقع تمامًا بكل مفرداته، يتفهم الثقافة التي يعيش فيها، ويعي مفرداتها وتفاصيلها الدقيقة، فهو ليس فارسًا آتيًا على حصانٍ لإنقاذ الأُمة، بل هو يخرج من وسط الأُمة مدركًا مشاكل الواقع، ومتحديًا صعاب مجابهة المستقبل.

السياسي المبدع يدرك حجم القوة الحقيقية للجبهة التي يمثِّلها، ويحاول إيجاد أفضل الحلول الممكنة، ليستْ القضية أنْ يستطيع السياسي أنْ يَعِدَ بالكثير مما لا يملُك، وقد كان مرسي أول مَنْ وقع في فخ الوعود، فوعد كثيرًا وخاب أمل الكثيرين فيه.

إدراك حجم القوة هو أهم ما يميز السياسي، ومن ثَمَّ يستطيع أنْ يقود فريقه وبلاده للممكن، وليس للوهم الجميل، وغالبًا ما يصدِّق الكسالى والحالمون الوهم الجميل، فمن السهل أنْ يستمتع الكثير ببعض الكلمات الرنانة، ثم تتبخر الوعود، وينفض الموكب عن زعيمٍ وهمي، يتكلَّم حين يكون عليه أنْ يعمل.

في العمل السياسي يبقى فقط مَنْ يسيطر على الواقع ويتفهمه، ويتبخر كل مَنْ يتحايل على الواقع، ويتجاهل مشاكله الملحة، ومن الواضح أنَّ الصورة في مصر مازالتْ ضبابية، والناس في حيرة، وسئموا من تناقضات السياسيين وعجزهم عن الإنجاز، ويبقى المواطن البسيط هو الوحيد المهموم، والراغب في الاستقرار الاقتصادي والأمني والنفسي، ولكنه يبدو وكأنَّ الأمر حتمي ولا فِكاك منه، وسنظل نعاني من سياسيين ينزجون تحت وهمٍّ أنهم أفضل مَنْ يتحدث في السياسة، وكأنَّ السياسة هي فن الكلام، وكأنهم لا يعلمون أنَّ التاريخ السياسي فقط يذكر مَنْ غيروا الواقع، لكنه أبدًا لن يهتم بمَنْ تحدثوا عن الواقع، فالحديث عن الواقع لا يغيره، فقط نستطيع تغيير الواقع حين نستوعبه بكل معطياته، فهل آن الأوان أم مازلنا نغني للوطن في حين يغيِّر الآخرون العالم من حولنا؟.

كلمة أخيرة

أحببتُ كل ما كتبتُ في هذا العمل، ودائمًا وأبدًا سوف يظل دفاعي عن الحُرِّية كفكرة وممارسة هو هدفي الأول، الحُرِّية هي حجر الأساس في بناء مجتمعٍ يسعى نحو الإبداع والتغيير، مجتمعٍ جادٍ في علاقته بالحياة، ومهما حاول أعداء الحُرِّية قمع وحجب وفرض ما لا يقبله الفرد، سوف يظل حق الإنسان الأصيل في كافة الحريات، وسوف تنتصر دائمًا الحُرِّية، فلا قيمة لشيءٍ يفعله الإنسان، وهو مجبر مقهور، سوف يظل حق الاختيار وتقرير المصير، هو المقدس الأساسي الذي يقدِّس باقي مناحي ومسالك تلك الحياة.

والحُرِّية قرار يتبعه الكثير من المسئوليات، فحين تقرِّر القيام بأي دورٍ في تلك الحياة فأنتَ تقرِّر أنْ تكون مسئولًا.

شريف رزق

المؤلف في سطور

- **كاتب وحقوقي وإعلامي مصري**
- **عضو مجلس أمناء المبادرة المتحدة للأديان عن شمال إفريقيا والشرق الأوسط**
- **كتب العديد من المقالات بصحيفتي:**

  المصري اليوم - Egypt Independent
- **يقوم بالتحليل السياسي في Nile T.V**

- **صدر له :**

  - في البدء كانت الحرية : مقالات.

  شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤

- البريد الإلكتروني : sherifaq@gmail.com